عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

فلسفة الفعل الإنسانيّ في علم الكلام الإسلاميّ والفلسفة المعاصرة (القاضي البيضاوي والقاضي عبد الجبَّار في مقابل موريس بلوندل أنموذجان)

سجود خضر جعبري

رسالة ماجستير

القدس- فلسطين

1440 هـ / 2019

فلسفة الفعل الإنسانيّ في علم الكلام الإسلاميّ والفلسفة المعاصرة (القاضي البيضاوي والقاضي عبد الجبَّار في مقابل موريس بلوندل أنموذجان)

إعداد

سجود خضر جعبري

بكالوريوس اللغة العربية وآدابها

إشراف: د.بلال زرينه

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في برنامج الفلسفة في الإسلام/ كلية الآداب/ عمادة الدراسات العليا/ جامعة القدس

1440 هـ / 2019 م

جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

برنامج الماجستير في الفلسفة في الإسلام

إجازة الرسالة

فلسفة الفعل الإنساني بين علم الكلام الإسلامي والفلسفة الحديثة

(القاضي البيضاوي والقاضي عبد الجبار و موريس بلوندل أنموذجان)

اسم الطالبة: سجود خضر الجعبري

الرقم الجامعي: 21412247

المشرف: د. بلال زريقة .....

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 20-5-2019 من لجنة المناقشة المدرجة أسمائهم وتواقيعهم:

1. رئيس لجنة المناقشة: أ. د سري نسيبة التوقيع: .....
2. ممتحناً داخلياً : د. صلاح عدامة التوقيع: .....
3. ممتحناً خارجياً: د. محمود زياد التوقيع: ٢٠١٩/٥/٣١

القدس- فلسطين

1440 هـ - 2019م

الإهداء

إلى الروح التي سافرت مبكراً وخلقت لنا عهدا من الأسئلة

إلى الروح المحبة و الدعاء الصافي

..... إلى روح أمي

إلى الغالي مشعل شرارة العلم الأولى و شرارة الحب الأولى

إلى السند الأعظم

..... إلى أبي الغالي

إلى الداعم المحب الذي أمسك بيدي إلى نهاية الطريق وحامل العبء الأعظم

.....إلى زوجي الغالي

إلى كل المحبة إخوتي وأخواتي وعائلتي الثانية

الإقرار

أُقر أنـــا معـــدّة الرســـالة بأنهـــا قـــدمت لجامعـــة القـــدس لنيـــل درجـــة الماجســـتير، وأنهـــا نتيجة أبحاثي الخاصـــة، باســـتثناء مـــا تـــم الإشـــارة لـــه حيثمـــا ورد أن هـــذه الدراســـة، أو أي جزء منها لم يقدم لنيل درجة علمية لأي جامعة، أو معهد اَخر.

التوقيع .....

الاسم : سجود خضر الجعبري

التاريخ : 20-5-2019.

الشكر والتقدير

أود أن أتقدم ببالغ الشكر ل أ.د سري نسيبة على منحه لنا هذه الأيام العلمية في برنامج الفلسفة في الإسلام والتي قبل أن تكون مغذية للعقل كانت مغذية للروح، بالإضافة لمساعدتي الخاصة في مراحل قيامي بالبحث من خلال النقد والتوجيه مسانداً وداعماً.

أتقدم بالشكر والتقدير لمشرفي الدكتور بلال زرينه على دعمه ومساندته وحثه لي على الكتابة والتقدم في مراحل البحث، حيث لم يبخل في تقديم الوقت والمساعدة والمساندة.

وشكر خاص لجميع أساتذتي في البرنامج الذين خلقوا لنا أسئلة ومدارك وتجربة فريدة.

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على فلسفة الفعل الإنساني من خلال نماذج من علم الكلام الإسلامي والفلسفة الحديثة، درست من علم الكلام الإسلامي شرح البيضاوي والقاضي عبد الجبار باعتبارهم أنموذج واحد يمثل علم الكلام الإسلامي، ومن الفلسفة الحديثة درست الفيلسوف الفرنسي موريس بلوندل في محاولة لعرض فلسفته حول الفعل الإنساني كفيلسوف مؤمن يحاول أن يخرج بفلسفة لا تتناقض مع الإيمان.

ارتبط اسم موريس بلوندل بفلسفة الفعل، فعند ذكره عادة ما يشار إلى فلسفته في الفعل، ضمّن بلوندل في فلسفته حول الفعل كل نشاطات ومقتضيات الفعل الإنساني من الأفكار إلى المشاعر والتطلعات غير منعزلة عن الديناميكية الروحية للإنسان، تبدأ هذه الدراسة من فلسفة بلوندل منتقلة إلى كتب التراث الكلامي لتبحث العلاقة بين علم الكلام الإسلامي وفلسفة الدين.

وقد جاء هذا البحث مكوناً من مقدمة وثلاث فصول وخاتمة:

المقدمة: ذكرت فيها أسباب اختيار فلسفة الفعل وأهمية وأهداف البحث ومنهجيته، والعلاقة التي تجمع فلسفة الدين بعلم الكلام، وكيف حاول المفكرون إنتاج فكر فلسفي غير متناقض مع الإيمان.

الفصل الأول: يتضمن هذا الفصل الحديث عن مادة الفعل لغوياً، و تتبع لفلسفة الفعل في السياق العربي الإسلامي والسياق الغربي واليوناني، ونظرة حول المقتضيات التي تسبق وجود الفعل وضرورتها.

الفصل الثاني: يدرس هذا الفصل السؤال حول الفعل وجوده وعدمه، علاقته بوعي الإنسان وعقله والنية التي تسبق الفعل، وعلاقة العاطفة والوجدان والرغبة في الفعل، وكيف أن الفعل الإنساني ينتج من خلال اجتماع هذه العمليات في الإنسان.

الفصل الثالث: يدرس هذا الفصل علاقة الفعل الإنساني بالأخلاق، وكيفية الوصـــول إلـــى الفعـــل الإنساني الخلقي السامي، من خلال الواجب الإنساني.

الخاتمة: في الختام تذكر الباحثة أن تكوين الإنسان يكون من خلال تكوينه الروحي، وتفاعله بـــين السمائي والأرضي ينتج فعله الخلقي، وتنهي الباحثة بمجموعة النتائج والتوصيات.

Abstract:

The recent studies aim at shedding light on the philosophy of action role between, the scholar of kalam and the modern philosophers. Maurice blondel as a philosopher in philosophy of religion or as theologist, and the scholars of kalam alqadi al baydawi in his explanation, and al qadi abd aljabbar as one of the mu`tazila. I mentioned Maurice blondel as a Religious philosopher trying to mention that philosophy does not contradict religion.

Wherever Maurice blondel is mentioned the philosophy of action is mentioned, blondel includes all the human activities in his philosophy of action thoughts feelings and passions, doesn't isolated from the spiritual dynamism of human soul. Therefore I have started from Maurice blondel then moved to the historical kalam books to see the relationship between the Islamic theologies and the philosophy of religion.

This studies of introduction consists three chapters and conclusion:

First the Introduction introduced the reasons why I choose the philosophy of action and the importance of the research the goals and methology.

Chapter one: contains the meaning of action of linguistics, the action of Islamic Arabic philosophy, and Greek western in philosophy and modern philosophy.

Chapter two: contains the question of action, the relationship between the human consciousness, mind, and intention.

Chapter three: introducing the moral human action, and the moral obligation that leads us to the supernatural moral action.

Conclusion: contains the most important results and recommendations..

الفهرس:

الإقرار .....أ

الشكر والتقدير .....ب

ملخص الدراسة: ..... ج

Abstract ..... هـ

الفهرس .....و

المقدمة 1

أهميَّة البحث 5

أهداف البحث 5

الدِّراسات السَّابقة 6

منهج البحث 8

الفصل الأوَّل: مدخل إلى دراسة فلسفة الفعل 9

1.1 مفهوم فلسفة الفعل 10

2.1 نشأة فلسفة الفعل في الفكر العربيّ الإسلاميّ 14

3.1 فلسفة الفعل في السِّياق الغربيّ 20

4.1 مقتضيات وجوب الفعل 23

5.1 الوجود والوجدان والفعل 28

الفصل الثَّاني: سؤال الفعل 32

1.2 سؤال الفعل بين الوجود والعدميّة 33

2.2 الوعي والفعل 37

3.2 السببيَّة والفعل 41

4.2 النّيَّة والفعل 44
5.2 الفعل والوجدان 47
الفصل الثالث: الفعل والأخلاق 50
1.3 الواجب الخلقي 51
2.3 الحرية وحرية الإرادة والخلق 56
3.3 فعل الجماعة الأخلاقي 60
4.3 الفعل الاجتماعي و السّياسي 61
5.3 علم الأخلاق 65
6.3 الأخلاق والميتافيزيقيا 66
7.3 بلوندل والميتافيزيقيا 67
8.3 النفس والروح 70
الخاتمة 73
المصادر والمراجع 77

المقدمة:

دأب الإنسان سعيًا من أجل البحث عن معنى لوجوده " كنهه" " ماهيته" خالقًا أسئلة جديدة في كل العصور والأجيال، وقد كان وما زال سؤال الإرادة والفعل سؤالًا مقلقًا وضعه الإنسان تحت الدَّرس، سائلًا عن معنى الفعل، وعلاقته بالإرادة الإنسانيّة منها والإلهية، مطلقا العنان لفكره: فلسفيًا وعلميًا وكلاميًا، ويحاول الإنسان في جهد مستمر أن يمسك بمعرفة ما متماسكة حول هذا الإنسان وجوده وفعله وإرادته.

نعم عنونت الدراسة بفلسفة الفعل، ولعل أهم ما حاولت هذه الدراسة إيصاله هو العلاقة بين " الفلسفة" من حيث هي جانب نظري و" الفعل" من حيث هو التطبيق لما هو نظري، وكيف أن هذه العلاقة تؤثر على الفعل الإنسانيّ الأخلاقيّ، وعلاقتها بالجانب الدّيني والممارسة الدّينيّة للإنسان.

وفي حين عرف علم الكلام على أنه العلم الذي يثبت العقيدة الدينيّة من خلال فلسفة كلاميّة عقليّة تجيب عن الأسئلة المطروحة على العقل فلسفيًا، يتقابل بلوندل معهم من خلال محاولة أن يخرج بفلسفة خاصّة له غير متناقضة مع إيمانه، منطلقًا من إيمانه أي أنّه لا تناقض بين كون الإنسان فيلسوفًا ومتدينًا.

الأنموذج الأوّل هو موريس بلوندل ولد في ديجون في فرنسا باريس في سنة 1861م وقد عمل أستاذًا في جامعة آكس أون بروفانس حتى وفاته، نشأ على الكاثوليكيّة التّقليدية في ديجون[1]، حاول بلوندل أن يناقش السّؤال الخاص وهو العلاقة بين الفلسفة واللاهوت وقد كانت محاولة بلوندل كتابة حول الفعل **L'Action (1893)**[2] نتيجة ظهور تيار يرفض فكرة فلسفة الفعل، بحيث أن الفعل لا

[1] موسوعة أعلام الفلاسفة حياتهم آثارهم وفلسفتهم ، روني إيلي الفا، دار الكتب العلميّة ، بيروت، لبنان، ج1، 1991، ص 244.

[2] L'action (1893) : Essai d'une critique de la vie et d'une science de la pratique , Maurice Blondel, Alcan , Paris, 1893.

يمكن النّظر فيه فلسفيًا ــ مما اضطر بلوندل أن يقوم بعمليّة توضيحيّة حول هذه العلاقة، وعلاقتها بالفعل ، وكيف أنّه لم يلغ الجانب النّظريّ الفلسفيّ في حديثه عن الفعل .

ترجم النّص للإنجليزيّة من قبل أوليفيا بلانشيت، وقد عبّر بلانشيت عن الصّعوبة الّتي واجهها في ترجمة النّص للإنجليزيّة لعمق ودقّة استخدام المصطلحات الفرنسيّة في كتاب موريس بلوندل، حتى إنّه كان يستخدم المصطلح الفرنسيّ في بعض الأوقات لعجز التّرجمة عن ذكر الكلمة الملائمة في الإنجليزيّة، وقد كتب المترجم عن حياة بلوندل الفكريّة كتابًا Maurice blondel a philosophical life.

بلوندل هذا الفيلسوف الكاثوليكيّ المؤمن كان له عدّة مناظرات جدليّة فلسفيًّا وأراد أن يكون فيلسوفًا لا أن يحسب على اللاهوتيين، وهو تنويريّ عقليّ حاول أن ينهض بسؤال فلسفة الدّين والإجابة عنه من خلال "الفعل" [1]. ولعلّ الأفضل أن يفهم موريس بلوندل على أنّه فيلسوف، ولكن لنقل "إنه فيلسوف وسع نطاق الفلسفة لتشمل الدّيانات الرّوحيّة وكيفيّة حضورها في الفكر الإنسانيّ وفي الفعل[2].

وقد شهدت فترة القرن العشرين والتي برز فيها موريس بلوندل حراكاً فكرياً، وكان للعقل مركزية خلافاً لما تحاول فلسفة بلوندل الوصول إليه، في حين حاول بلوندل يعقلن فكرة الروح، فقد أدخل الفلسفة إلى الفعل وربط الفعل بالجانب الروحي للإنسان.

تأثر بلوندل بفلسفة القديس أوغسطين وهو فيلسوف مسيحي برز بما بين القرن السادس والسابع عشر، له عدة نصوص ومن أهمها كتاب محاورة الذات والتي يحاور فيها أوغسطين العقل والنفس

[1] Blanchette, O. (2004). The Rationale for a Catholic Philosophy: According to Maurice Blondel. *Revista Portuguesa De Filosofia, 60*(2), 329-348. Retrieved from http://www.jstor.org/stable/40337827

[2] Maurice Blondel: A Philosophical Life, olive Blanchet,
Wm. B. Eerdmans Publishing, 2010,

ويحاول أن يصل إلى معرفة فيهما، وقد تكون مسألة التأثر بالقديس أوغسطين كونه فيلسوفا مسيحيا أو لنقل ثيولوجيا حاول أن يفلسف الدين المسيحي. إن ما يدلل على تأثر بلوندل بأغسطين في ما يخص فلسفة الفعل , التشابه في الديناميكية الروحية للإرادة الإنسانية، اقتبس بلوندل من أوغسطين عبارة تعبر عن هذه الديناميكية وهي "our hearts shall not rest until they rest in thee" .[1]

ومن علم الكلام نظرت في شرح "طوالع الأنوار" للقاضي البيضاويّ، الذي شرحه أبو بكر المرعشيّ في كتاب "نشر الطَّوالع"، والقاضي عبد الجبَّار المعتزليّ: وهو عبد الجبّار بن أحمد الأسدآبادي المتوفي في 418هـ[2] ، وفي علم الكلام كانت الإرادة الإلهية هي الأساس الّذي يقاس عليه، ومن خلالها يتم فهم الفعل الإنسانيّ على هذه الأرض والعكس أيضًا، فانطلاقًا من فهمنا للنَّصِّ الدِّينيِّ والطَّبيعة الإنسانيَّة يتم فهم الإرادة الإنسانيَّة والفعل الإنسانيّ.

من خلال العقل عرضَ المتكلمون للمسائل العقيدة وغيرها من المسائل التي تتعلق بالوجود الإنساني, وعلاقته بالموجودات الأخرى على الأرض، وقد كانت كتبهم تشمل آراء متكلمي وفلاسفة عصرهم، وقد نظرت في الآراء الواردة عن الفعل الإنساني في نشر الطوالع وهو بمثابة شرح لطوالع الأنوار ، ينتمي البيضاوي للمدرسة الأشعرية، ولكن هذا الكتاب يجمع الآراء لمتكلمي الأشاعرة والفلاسفة والمعتزلة في محاولة لفهم كل قضية بعرض مجموعة من الآراء التي وردت حولها، فينظر في الإرادة والقدرة الإنسانيّة وعلاقتها بالإرادة والقدرة الإلهية، وينظر في العدم.

تأتي الإرادة عند البيضاوي في عنوانين الأول حول الإرادة بشكل عام ما هي ؟ وما الاختلافات بين المتكلمين حول تعريفها؟ ونقده للتعريفات الأخرى ، والثاني حول الإرادة الإلهية والتي لها ارتباط

---

[1] Blondel on the subjectivity of moral decision making, joun j.mcneil, Woodstock college, new York, from **http://www.mauriceblondel.com/BlndMoral.pdf**.

[2] المغني في أبواب التّوحيد والعدل، القاضي عبد الجبَّار، دراسة وتحقيق خضر محمد نبها، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، جزء4 ، ص7.

بالتعريف الأول لأن مسألة الإرادة الإلهية عند المتكلمين لا تنفصل عن الإرادة الإلهيـــة. ويؤكـــد القاضي عبد الجبار على أن الإرادة اضطرارية ولا يسهب في الخلاف حول إثبات الإرادة للإنسان، إنما يفصل في التفرقة بين الإرادة وغيرها من المصطلحات التي تختلط معها، وبعـــض الخلافـــات التي وردت على ألسن المتكلمين. أما موريس بلوندل يدرس الإرادة ويحاول الإجابة على ســـؤال إذا كان فهم الإرادة الإنسانية يساعدنا على تعريف وتحديد الفعل الإنساني في العالم الطبيعي؟ ويؤكد أن الإرادة لا يمكن أن تتجه إلى العدمية، وقد قسم موريس الإرادة إلى إرادة المراد وإرادة المريـــد وتحدث عن الفعل الإرادي.

ويأتي بعد الإرادة عند القاضي عبد الجبار والبيضاوي الحديث عن القدرة، يربط القدرة الإنســـانية بالقدرة الإلهية وكيف أنهما لا تنفصلان، وهل القدرة هي سلامة البنية الجسدية؟ وهل القدرة ملازمة للفعل أم أنها منفصلة عنه؟ كيف يختلف الفاعل في حالة القدرة الحاصلة دون وجود آلة و القـــدرة التي توجب وجود آلة حتى توجد، ففي الأولى يكون الفاعل فاعلا أما الثانية فيعتبره البيضاوي فعلا. ويطرح أيضا مسألة إن كان الممنوع عن فعل ما وهو يمتلك قدرة عليه هل يعتبر قادرا أم لا ؟

ويدرس موريس بلوندل القدرة على الفعل، ولكن هل تكون عنده مرتبطة فـــي الإرادة؟ يـــدرس موريس الفعل من ناحيته الفيزيائية، ويدرس علاقة الفعل في الجانب الأخلاقي، وكيـــف ارتبطـــت القدرة بالرغبة الإنسانية، وهل يمكن أن تخلق الرغبة الإنسانية القدرة على الفعل الإنساني؟

يحاول موريس تعريف الفعل الإنساني من خلال العلم، وذلك من خلال نقد النظريات التي ظهـــرت في عصره حول الحتمية والأخلاق، ويؤكد على تثبيت النظرية الحتمية بالنسبة للـــوعي وبالتـــالي الأخلاق في عصره، ويحاول أن يصل لنظريته الخاصة في ما يخص الفعل الإنساني. وينتقل إلـــى دراسة عناصر الوعي. يدرس موريس أيضا أسبقية السبب على الوعي ، وكيف يؤثر ذلـــك علـــى مفهومنا حول الحرية؟

فصل كل من موريس والبيضاوي والقاضي عبد الجبار في مسألة الفعل الإنساني، وكان مـــوريس أكثر اتساعا؛ بحيث أدخل المسألة النفسية والاجتماعية، وقد اجتمع كليهما على التطرق إلى المسألة الميتافيزيقية للفعل، وستحاول الباحثة في رسالتها دراسة الفعل الإنساني مـــن خـــلال البيضـــاوي وموريس بلوندل كأنموذجان للدراسة، لأنهما اجتمعا على أمور واختلفا في مسائل معينة في دراسة الفعل الإنساني.

أهميَّة البحث:

تكمن أهميَّة البحث في كون الفعل الإنسانيّ هو الَّذي يحقِّق الإنسان من خلالـــه وجـــوده، وكـــون مصطلح فلسفة الفعل مصطلح حديث النشأة، ولم يستفاض في دراسته، إذ تحـــاول هـــذه الدِّراســـة الإحاطة بفلسفة الفعل ما قبل نشأة المصطلح وما بعد نشأته.

أهداف البحث:

1. الإحاطة بمفهوم الفعل الإنسانيّ، وعلاقته بالفعل الإلهيّ في الدِّراسات اللاهوتيّة والكلاميَّة.
2. الإجابة عن علاقة الفعل بالوجود، وهل أنّ كل منهما صورة للآخر؟
3. دراسة أنموذج فلسفيّ لاهوتيّ مثل: موريس بلونديل، والذي يعتبر المؤسس لفلسفة الفعل.
4. دراسة مقارنة بين كلٍّ من الأنموذج الفلسفيّ اللاهوتيّ والأنموذج الكلاميّ الإسلاميّ " القاضي البيضاويّ والقاضي عبد الجبَّار" .

الدِّراسات السَّابقة:

"**الوجود والصيرورة والفعل**" لتيسير شيخ أرض: تيسير شيخ أرض من المؤلفين السّوريين في فترة القرن العشرين، كتب عددًا من الكتب في الفلسفة، من ضمن هذه الكتب كان كتاب الوجود والصيرورة والفعل، وفي هذا الكتاب دراسة تربط الفعل الإنساني بالوجود والوجدان، ويركز على فكرة علاقة الوجدان بالفعل[1].

"**الذَّات ونظريَّة الفعل**" لعزَّت قرني: في هذا الكتاب يحاول الكاتب وهو أستاذ فلسفة مصري، برز في القرن العشرين وكان له عدد من المؤلفات الفلسفيَّة حول الحريَّة والجبر، أن يؤكِّد على العلاقة الرَّابطة بين الذَّات الإنسانيَّة ونظريَّة الفعل، والتَّفرقة بين الذَّات الإنسانيَّة الواعية و بين الذَّات الإنسانيَّة غير الواعية، وعلاقة ذلك بالفعل الإنسانيّ[2] .

"**فلسفة الفعل**" زكريا إبراهيم: في هذه الدراسة إحاطة بما كتب بلوندل عن الفعل الإنساني، وهي رسالة ماجستير لزكريا ابراهيم، يدرس فيها فلسفة الفعل عند موريس بلوندل، وزكريا ابراهيم واحد من أبرز أساتذة الفلسفة في القرن العشرين في مصر[3]، وتعتبر رسالته أهم وأطول ما كتب عربيا عن موريس بلوندل.

"**فلسفة الفعل الإنسانيّ عند القاضي عبد الجبَّار**" رسالة ماجستير لأيمن غازي خلايلة[4]: دراسة فلسفيَّة في علم الكلام تدرس فلسفة الفعل عند القاضي عبد الجبَّار، يحاول الكاتب فيها الإحاطة بما كتب القاضي عبد الجبَّار حول الفعل وفلسفته، وعلاقته بالفعل الإلهي .

الوجدان: هو النَّفس وقواها الباطنة، أو هو القوة الباطنة فقط من جهة ما يدرك من الحياة الباطنيَّة.

"**العقل والفعل في الفلسفة الإسلامية**" سلمان البدور: دراسة فلسفيَّة في الفلسفة الإسلاميَّة تنتقل من علم الكلام الإنساني إلى الفلسفة المشائية، يحاول فيها الكاتب الإحاطة بمفهومي العقل والفعل في الفلسفة الإسلاميَّة.

منهج البحث

يستخدم الباحث المنهج التحليليّ التركيبيّ في هذه الدِّراسة، ويحاول أن يصل إلى فرضيته التي تحاول أن ترى الرَّابط الَّذي يجمع نتائج النَّظريَّة الفلسفيَّة في الفكر الفلسفيّ الإسلاميّ، ونتائج الفلسفة الحديثة في ما يتعلق بفلسفة الفعل.

و يأتي المنهج التَّاريخي في إطار دراسة فلسفة الفعل في علم الكلام الإسلاميّ، بحيث يكون هناك تحليل تاريخيّ لنصوص بعض المفكرين من تياري الاعتزال والأشاعرة، ومقارنة كيف تباينت آراؤهم فيما يتعلق بالفعل الإنساني.

الفصل الأوَّل:

مدخل إلى دراسة فلسفة الفعل

قبل البدء بدراسة فلسفة الفعل عند الأنموذجين المذكورين، لا بدَّ من توضيح ملامح هذه الفلسفة؛ وخاصة أن هذا المصطلح متأخر الظُّهور في الفلسفة، حيث نجد أن هناك توجّهاً نحو دراسة الفعل الإنسانيّ في الفلسفة الحديثة والمعاصرة والتَّوسع فيه؛ لذلك ففي هذا الفصل سأحاول التأسيس للموضوع من خلال النَّظر في المراحل الَّتي مرَّت فيها فلسفة الفعل، وكيف أن لهذه الفلسفة جذورًا في الفلسفة اليونانية وعلم الكلام الإسلاميّ، وكيف أعيد النَّظر فيها على مرّ العصور، وكيف نشأ مصطلح فلسفة الفعل وأعيد إسقاطه على فلسفات قديمة مثل فلسفة أرسطو وعلم الكلام الإسلامي.

وفي هذا الفصل سأحاول الإحاطة بالمادة اللغوية لكلمة " فعل" ، ثم أنتقل للمعاجم الفلسفيَّة والكلاميَّة، وأرى ما كتب في معنى الفعل والفاعل وفلسفة الفعل، فالمعاجم الكلاميَّة تعرف الفعل والفاعل بناء على الاختلافات بين الفرق الكلامية، أما المعاجم الفلسفيَّة فقد أوردت معنى الفعل بناء على تعريفات بعض الفلاسفة.

من النَّاحية التَّاريخية بحثت فلسفة الفعل في السِّياق اليونانيّ من خلال أرسطو، فأرسطو كان لـــه حضور في معظم الدِّراسات على أنَّه أوَّل من كتب وأحاط في فلسفة الفعل[1]. وفي السِّياق الفلســفيّ الْعربيّ عرضت لكلٍّ من: فلسفة الكنديّ، والفارابيّ، وابن سينا. وتأثرهم بالفكر المعتزليّ واليونانيّ.

وفي الفلسفة الحديثة: عرضت لجون سيرل، وجون ديوي حول الفعل الإنساني، أمَّا فـــي السِّـــياق الفلسفيّ العربيّ الحديث: فعرضنا لفلسفة طه عبد الرحمن ومحاولته الوصول لـــربط بـــين الفكـــر والعقل والعمل. أمَّا بلوندل فذكره في هذا الفصل هامشي لأنّي سأخصّص له فصلًا نتحـــدَّث عـــن نظريَّته وفلسفته حول الفعل.

وسأنهي بمبحث عن الوجود والوجدان والفعل . وأهميَّة هذا المبحث في أنَّه يحاول أن ينظر فـــي مسألة لم يستفض في دراستها، وهي كيف أنَّ الوجدان الإنسانيّ محركٌ حقيقيٌّ للفعـــل الإنســـانيّ، وكيف تمَّ تجاوز هذا المحرّك ولم يركِّز عليه، وهكذا سأحاول أن أبرز أهميَّة الوجدان فـــي الفعـــل الإنسانيّ.

1.1 مفهوم فلسفة الفعل

لقد ارتبط الحديث عن الفلسفة بالنَّظر والفكر، أما الجانب العمليّ –وإن لم يكن غائبًا– إلا أنَّه لـــم تكن له المركزيَّة في الفلسفة، وعند الحديث عن مفهوم فلسفة الفعل، وكيف أنَّه جمع بـــين الفلســـفة والفعل، قد يحصل بعض الالتباس من أنَّ نشأة هذا المصطلح محاولة لتغييـــب الجانـــب النَّظـــري الفكريّ والذي يبحث في الجانب الميتافيزيقي عن الفلسفة، وحصر فلسفة الفعل فـــي إطـــار الفعـــل (العمل).

[1] **encyclopedia of the mind**, university of Californi , san Diego harlod pashler , 2013, p596.

عند النَّظر في المعاجم الفلسفيَّة نجد أنَّ الحديث عن فلسفة الفعل يأتي في إطارين، أوَّلهما: الحديث عن الفعل في الفلسفة ، وثانيهما: الحديث عن فلسفة الفعل ونشأة مصطلح فلسفة الفعل. وإذا كانت المعاجم الفلسفيَّة تؤكِّد النَّشأة المتأخِّرة لهذا المصطلح وارتباطه بفيلسوف معين، فالسؤال هنا عن إمكانية إسقاط هذا المصطلح متأخر النشأة، على ما ورد من كتابات فلسفيِّة وكلاميَّة في العصور القديمة.

يُعرّف الفعل لغويًا: على أنَّه العمل أو الصِّناعة، وقد أورد الجرجاني في تعريفاته أنَّ النُّحاة عرَّفوه على أنَّه ما دلَّ على معنى في نفسه في أحد الأزمنة الثَّلاثة[1]، وفي لسان العرب[2]: أنَّ الفعل: هو كلُّ عمل متعدٍّ أو غير متعدٍّ، أي أنَّ الفعل مرتبط في زمن معيَّن وفي فاعل ينسب إليه الفعل وفي الفعل نفسه أي الحدث النَّاتج عن الفعل.

ويطلق اسم الفعل على الأفعال الَّتي تخرج من الإنسان بكامل وعي وإرادة، وعلى الأفعال الَّتي تخرج من الإنسان عن طبيعته دون وعي، ولذلك يطلق على الأفعال الأولى الأفعال الإراديَّة، أمَّا الثَّانية: فيطلق عليها الأفعال اللاإراديَّة. ويطلق عليها المعتزلة: الأفعال الاختياريَّة والأفعال الاضطراريَّة.

وقد اعتبر الفعل الإنسانيّ جزءًا مهمًا من الدَّرس الفلسفيّ منذ العهد اليونانيّ ولاحقًا في الفكر الإسلاميّ الفلسفيّ والكلاميّ، ونجد المعاجم الكلاميّة الإسلاميّة تعرّف الفعل من خلال المشكلة الأساسيّة في الفكر الكلاميّ. والخلاف بين المعتزلة والأشاعرة وغيرها من الفرق في مسألة الفعل الإلهيّ والفعل الإنسانيّ، والسّؤال المركزيُّ هو إن كان الإنسان فاعلًا على الحقيقة أم لا؟

---

[1] التَّعريفات, العلاَّمة الشَّريف الجرجانيّ، دار الكتب العلميَّة، بيروت,1983، ص175.

[2] لسان العرب، ابن منظور الأفريقي , دار صادر , بيروت ،1993، ج14، ص42.

وتعريف الفاعل في علم الكلام: أنه مُحدِث الشَّيء أي مخرجه لدائرة الوجود، لذلك نجد للفاعل تعريفًا آخر فالفاعل بالجبر هو ما ينتج عنه الفعل من غير اختيار[1]، فتختلف التعريفات للفاعل تبعًا لاختلافات فكريَّة في مسألة الإرادة في الفعل الإنساني، وهناك من يقول إن الإنسان ليس محدثًا لفعله إنما هو مكتسبٌ له وهم الأشاعرة، واعتبر بعض الأشاعرة أن الإنسان فاعلٌ بالمجاز ليس له من الفعل سوى العزم عليه.

وأوردت بعض المعاجم تعريفات بعض الفلاسفة المسلمين للفعل، فقد ورد في معجم جميل صليبا تعريف ابن سينا للفعل، وهو: " الهيئة العارضة للمؤثِّر في غيره بسبب التَّأثير"[2] ، وهذا تأكيد على أنَّ الفاعل الموجود المتشخِّص هو الأساس لقيام الفعل عنده[3]، وهنا يجعل الفعل فيه ثلاثة أطراف المؤثِر الخارجيّ، والَّذي يدفع للفعل، والفاعل الَّذي يؤثّر في غيره نتيجة التَّأثير الخارجي ويكون ذلك من خلال العرض الذي سببَّه شيء خارجيّ. ويعرّف الكنديّ الفعل على أنَّه "تأثير في موضوع قابل للتَّأثير"، أو يقال إنّه الحركة في نفس المتحرِّك، أمَّا العمل فهو فعل بفكر[4]، وفي تعريف العمل على أنَّه فعل بفكر أهمية وهي أنَّ الحديث عن الفعل لا يعني أي حركة إنسانيّة قد تكون غير مدركة أو غير واعية، أمَّا الفعل بفكر فهو الفعل الذي يخرج من الإنسان بعد تفكير وإرادة وعزم، وهذا النَّوع من الفعل مهم ويدرج تحته الفعل الخلقيّ الذي ركَّز عليه الدَّرس الفلسفيّ الحديث والقديم ودرسه من زوايا متعدِّدة.

لقد ركَّز الدَّرس الفلسفيّ على الفعل الخلقيّ، لأنَّ الفعل الخلقيَّ هو الفعل الَّذي يسعى الإنسان أنْ يزرعه في مجتمعه البشريّ من أجل إقامة مجتمعٍ مستقرٍ خال من المشكلات، والفعل الخلقيّ يدرس من عدة زوايا فكيف يمكن للإنسان أن يقدم على الفعل الخلقيّ، هل من خلال القوانين

---

[1] شرح المصطلحات الكلاميَّة، ، إعداد قسم الكلام في مجمع العلوم الإسلامية، إيران، طهران،1994، ص251.

[2] المعجم الفلسفيّ، جميل صليبا، دار الكتب اللبنانيّ، بيروت، 1982,ج2, ص152.

[3] العقل والفعل في الفلسفة الإسلاميّة، سلمان البدور، ، دار الشروق للنَّشر والتَّوزيع، عمَّان، الأردن، 2006، ط1, ص 73.

[4] الرَّسائل الفلسفيَّة، الكندي، تحقيق محمد أبو ريدة، دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1999, ج1، ص 114.

الملزمة من الاجتماع البشريّ، أم من المسؤوليّة الفرديّة الخلقيّة، أم نابع من الوازع الـدِّيني الَّـذي يلزمه بمجموعة من الأفعال الخلقيّة، وهذا ما أفردت له فصلًا كاملًا.

أورد "صليبا" الفرق بين الفعل المادّيّ والفعل الصُّوري في الفلسفة[1]، فالفعل المادّي: هو ذلك الفعل المتعلِّقُ بموضوعِ الإرادة أي بمادَّة الإرادة أي بالمفعول الَّذي ينتج عن إرادة فعـل مـا، والفعـل الصُّوريّ هو الفعل المتعلِّق بالقصد أي بالغرض الَّذي يحرِّك الإرادة؛ فإذا أراد كاتبٌ ما كتابة كتاب فالنَّاتج الماديّ الكتاب هو الفعل المادِّيّ، أمَّا الفعل الصُّوريّ فهو غرض هذا الكاتب من كتابة هـذا الكتاب أو الرِّسالة الَّتي يريد إيصالها من كتابة الكتاب وهي المحفِّز لهذا الفعل، وهنا نلحـظ أيضًـا الصِّلة الشَّديدة بين موضوع الإرادة والفعل، فالفعل لا يقوم دون الإرادة، وإذا تحدَّثنا عـن وجـود إرادة يتبع ذلك ضرورة خلق الفعل.

وعلى الرغم من حضور واضح لأرسطو عند الحديث عن فلسفة الفعل في المعاجم الغربيَّة إلا أنَّهم يوردون الاختلاف بين طرح أرسطو حول فلسفة الفعل وبين فلسفة الفعل حديثة النشأة في الفلسـفة المعاصرة، ففلسفة أرسطو في الفعل والَّتي تلخصت في كتاب: (الأخلاق إلى نيقوماخيس) وكتـاب: "النَّفس والسِّياسة"، درست الفعل الإنساني في جوانبه المتعدِّدة من العمليَّـات الَّتـي تسـبق الفعـل الإنسانيّ من تعقُّلٍ وإدراكٍ ووعيٍ، ودرست الفعل الإنسانيَّ في ما يخصُّ العائلة والاجتماع البشريّ.

عنون "موريس بلوندل"[2] كتابه "action science of practice" الَّذي حاول من خلاله الرَّبط بين الفعل والنَّظر، ولهذا ارتبطت فلسفة الفعل به، وقد ذكر "زكريا إبراهيم": إنَّ "بلوندل" اعترض على هذه التَّسمية في البداية لأنَّ كتابه كان في البداية دراسة صغيرة عن الفعل، ألبسـت علـى بعـض الدَّارسين حين اعتبروا أن "بلوندل" قصر الفلسفة في الجانب العمليّ مع تغييب الجانـب النَّظـري الوجوديّ للفعل، وقد أثبت بلوندل عكس هذه النَّظريَّة في النُّسخة الكبيـرة اللاحقـة مـن كتابـه "

[1] المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ص153.

action". وقد أكَّد بلوندل على أهميَّة النَّظر في الجانب الميتافيزيقيّ، للفعل فلا يصحُّ دراسة الفعل دون التَّطرق إلى هذا الجانب[1].

إنَّ الحديث عن فلسفة الفعل سواء في الفكر اليونانيّ أو الكلاميّ الإسلاميّ أو الفلسفيّ المعاصر يندرج تحته مجموعة موضوعات، فالفعل كما ورد ليس عملية تضاف إلى الوجود إنَّما هو جوهر الوجود بالذَّات، فالوجود مقرون بالفعل دائمًا، والفعل الإنسانيّ يشمل الحديث عن الأخلاق والوجود والعقل.

2.1 نشأة فلسفة الفعل في الفكر العربيّ الإسلاميّ

لقد بدأت مشكلة خلق الأفعال في التَّاريخ الإسلاميّ من التاريخ الأمويّ؛ عندما أعلن الخليفة معاوية الجبر في الشَّام[2]، ولقد وردت عنه عدة روايات تبرَّر وصوله للخلافة في العهد الأموي من خلال عقيدة الجبر، فقد قال بعد أن تولَّى الأمر ورفض جماعات من الناس أن يأتمروا : **" أو لو يرني ربي أني أهلا لهذا الأمر، ما تركني وإياه، ولو ترك الله ما نحن فيه لغيره" وفي رواية أخرى: " أنا خازن من خزان الله تعالى، أعطي من أعطاه الله، وأمنع من منعه، ولو كره الله أمرا لغيره"**[3] ، بهذا الأسلوب التبريري ينسب معاوية أفعاله من الله فهو مجبر عليها لا مختار، وعلى الجميع تقبل الأمر والرضوخ له لأنه مقبول ومقدر من عند الله.

ومن هنا أسَّس معاوية لعقيدة الجبر في الحكم الأموي، وتبنَّاها كلُّ الخلفاء من بعده، وقد أسهمت تبريراته الجبريَّة في التَّوصية بالخلافة لابنه يزيد، وبالتَّالي دخل التَّوارث في الحكم إلى الإسلام، فأفعاله مقدَّرة من عند الله ولو أن الله مقت ما يصنع لم يقدر أن يفعل هذا. وقد برَّر ذلك بأنَّ الله قد

[1] فلسفة الفعل، رسالة ماجستير لزكريا إبراهيم، جامعة القاهرة، كلية الآداب,1969, ص5.

[2] نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النَّشار، دار المعارف, القاهرة، د.ت، ج1, ط9, ص 231.

[3] المصدر نفسه، ص232.

أراه في ولده رأيًا حسنًا أن الله في استخلافه له كأنَّما استخلف سنَّة أبي بكر وعمر، ولكن يرد عبد الرحمن بن أبي بكر في الرواية قائلًا بل سنة هرقل وقيصر [1].

و ظهرت فرقة الجبريَّة الَّتي قالت: بأنّ أفعال الإنسان كلّها من خلق الله وأنّ الإنسان غير مسؤول عنها، وقد ظهر تيار الإرجاء من أجل تثبيت الحكم الأمويّ. وقد أسهم الإيمان في الأفكار الجبريّة في خلق مشكلة في الجانب الخلقيّ للفعل الإنسانيّ، فالإيمان بالجبر يجعل من تبرير الفعل الإنسانيّ اللاأخلاقي ناتج عن إرادة إلهيّة وأنّ الإرادة الإلهيّة لو جوزت غير هذا الأمر لم تسمح به.

ظهرت بعدها مذاهب لها آراء حول هذه المسألة في الفكر الإسلاميّ، ومن أبرز هذه الفرق: فرقة المعتزلة، وفرقة الأشاعرة، فقد اعتبر المعتزلة أنَّ الإنسان يخلق أفعاله بنفسه دون تدخل إلهي، أمَّا الأشاعرة فقالوا بأنَّ الله يخلق الفعل للإنسان أمَّا الإنسان فيكون مكتسبًا له.

ارتبطت نظريَّة الفعل الإنسانيّ عند المعتزلة بأصل العدل الإلهي، فالفعل الإنسانيّ عندهم يصدر عن الإنسان وذلك نتيجة للقدرة الّتي منحها الله له، ولا يمكن أن يصدر الفعل الإنسانيّ عن الله عندهم لأنَّ الله لا يمكن أن يكلِّف الإنسان ويحاسبه على التَّكليف ويكون هو الفاعل الحقيقيّ، فصفة العدل هي من صفات الله وعدل الله لا يسمح بذلك، لذلك قالوا بأنَّ أفعال الإنسان هي من خلقه فكل ما في الكون هو إحداث من الإنسان بناء على القدرة المعطاة من الله سبحانه. وقد قسِّمت الأفعال عند المعتزلة إلى أفعال جوارح، وأفعال قلوب. واعتقدوا أن الإنسان مريد في كليهما.

أمَّا نظريَّة الْكسب عند الأشاعرة فهي نظريّة تقول: إن الإنسان ليس هو الفاعل الحقيقيّ لفعله، إنَّما هو مكتسب لفعله، والكسب هو" **تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل المقدور المحدث من الله على الحقيقة**[2]"؛ أي أن يحدث القدرة على الفعل في كلّ مرة يعزم فيها الإنسان على فعل ما، والمعنى هنا

[1] تاريخ الخلفاء، جلال الدِّين السُّيوطي، وزارة الاوقاف والشُّؤون الإسلاميّة، قطر, 2013، ط2، ص229.

[2] مذاهب الإسلاميين، عبد الرَّحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، 1997، ص 555.

أنَّ الإنسان ليس له من الفعل إلَّا العزم عليه، والعزم إن نسب إلى الإنسان فهو بمثابة فعل من أفعال القلوب فهو بهذا يعتبر فاعلًا أيضًا[1].

الله يمنح الإنسان المشيئة والقدرة ليقوم بالفعل الإنسانيّ، وهذه المشيئة التي يحدثها الله في الإنسان تتعلَّق في المشيئة الإلهية فتكون المشيئة الإنسانيَّة والمشيئة الإلهية حاضرتين في الفعل الإنسانيّ، والمشيئة الإلهيَّة من الممكن أن تتدخّل في المشيئة الإنسانيَّة وتحدث بها ما تشاء. أصل اختلاف الإنسان عن الكائنات الأخرى كونه منح هذه القدرة والمشيئة للقيام بأفعاله.

وعلى الرَّغم من أنَّ الإشكال الأساسي كان في العقيدة إلَّا أنَّ هذا لم يمنع أنَّ الكتب الكلاميَّة درست الفعل الإنسانيَّ في إطار محاولة الوصول إلى إثبات آرائهم العقديَّة، فدرست الفعل الإنسانيَّ من حيث ما يسبقه من مقتضيات، ودرست الفعل النَّاتج عن الإنسان بطبيعته دون وعي منه، والفعل الَّذي ينتج عن الإنسان باختياره.

بالنسبة للمعتزلة أسهمت نظريَّتهم حول الفعل الإنسانيّ في التَّوسع في دراسته، فالخلاف العقائديّ أسهم في إنتاج مادَّة فلسفية حول دراسة الفعل الإنسانيّ ليس منفصلًا عن النَّظر، والفكر، والجانب الميتافيزيقي؛ فقد قسَّم المعتزلة الأفعال إلى اختياريَّة واضطراريَّة. فالاضطراريّة: هي الّتي تحدث من نفسها لا دخل للعبد في إحداثها، ولكنَّها تنسب إليه مجازًا، وهي الأفعال الطَّبيعيَّة، مثل فعل النَّار للإحراق، أمَّا الأفعال الاختياريَّة للإنسان فهي الأفعال المكلَّف فيها ويسئل عنها، مثل الأفعال الدِّينيَّة كالصَّوم والصَّلاة[2].

وقد أسهمت نظريتهم في الفعل الإنسانيّ إلى إظهار مشكلة جديدة وهي مشكلة التولّد، وهي فكرة تشبه مبدأ السَّببيَّة في الفلسفة، والأفعال المتولِّدة هي الأفعال غير المباشرة الَّتي يصنعها الإنسان

[1] نشر الطَّوالع ، أبو بكر المرعشي، تحقيق محمد يوسف ادريس، دار النور المبين للنشر والتوزيع، عمان ، الأردن، 2013، ص435.

[2] في الفلسفة الإسلاميّة منهج وتطبيق، ابراهيم مدكور، دار المعارف، مصر، ج2، 1976.

وتنسب له، فالإنسان الَّذي يقوم بدفع حجر على شخص ما تسبب بنزول الدَّم منه هو الفاعــل وإن كان بواسطة الحجر، لأنَّه يعرف أنَّ صلابة الحجر ستسبب هذه النَّتيجة.

وهناك اختلاف بين الفعل المتولد وبين العلَّة والمعلول وهذا الاختلاف من كون وجود المولّد للفعل لا يوجب المتولد؛ بمعنى أن المولد للفعل وجوده يحتمل حصول المتولد أو عــدم حصــوله تبعًــا للظروف، أمَّا في العلّة والمعلول فالعلَّة توجب وجود المعلول [1].

وقد اختلف الأشاعرة مع المعتزلة في مسألة العلاقة السَّببيَّة بين السَّبب والمسبّب، واعتقدوا أنَّ الله يخلق السَّبب في كلِّ مرَّة يحدث فيها تلاقي بين السَّبب والمسبب، فالعلاقة ليســت ضــروريَّة وإن كانت متكرِّرة، مثال ذلك النَّار وصفة الاحتراق تتلازم صفة الاحتراق مع النَّار إلَّا أنَّ هذا الــتَّلازم غير ضروريّ فالله يخلق صفة الاحتراق في كلِّ مرةٍ تشب فيها النَّار.

وأنتقل إلى فلسفة الفعل في الفلسفة الإسلامية، وقد كان أثر الفلسفة اليونانية واضحًا فــي فلاســفة الإسلام الأوائل، واختلف هذا التَّأثر من فيلسوف لآخر، إلَّا أنَّهم حاولوا التَّوفيق بين فلســفة الفعــل اليونانيّ وفلسفاتهم بحيث تكون متوائمة مع العقيدة الإسلاميَّة، ومن هؤلاء الكندي والفارابي وابــن سينا. وقد درست الفلسفة الإسلاميَّة الفعل الإنسانيّ من حيث المؤثرات الَّتي تؤثر عليه، وكيف ترفع الفضيلة الفعل الإنسانيّ من فعل إنسانيّ حيوانيّ إلى فعل يقترب من المثاليّة.

لم يتأثّر الكنديّ لكونه من أوائل الفلاسفة في الإسلام بالفلسفة اليونانيّة فقط إنَّما تأثَّر أيضًا بــالفكر المعتزليّ[2]، ويؤكِّد الكنديّ أنّ الفاعل الحقيقيّ في العالم هو الله وكل الأفعال الأخرى في العالم منفعلة عن الفاعل الحقيقيّ، ففعل الإنسان هو فعل مجازي ويعرفه على أنَّه أثر المؤثِّر في المــؤثَّر فيــه، وعلى الرَّغم من إيمان الكندي بأنَّ الفاعل الحقيقيّ هو الله المبدع إلَّا أنَّه يؤمن بأنَّ هناك نظام محكم

[1] المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار،جزء التوليد، ص 135.

[2] العقل والفعل في الفلسفة الإسلامية، سلمان البدور، ص 33.

يحكم العلَّة والمعلول في الكون، يرى الكندي أنَّ مبدع الأشياء كلّها لا يكون منفعلًا، وكل شيء دونه يكون منفعلًا عنه وبعد ذلك ينفعل بعضها عن بعض[1].

يربط الفارابي الفعل الإنسانيّ بالنُّزوع، أي بالنّزوع إلى ما يحسّ أو إلى ما يتخيَّل أو إلى ما يرد في رويّته، والإحساس والتَّخيُّل والرويّة ليست كافية لقيام الفعل إنَّما هناك حاجة إلى النّزوع، والنّزوع يعني الشّوق إلى الصّورة المتخيّلة والمحسوسة [2]، فالرَّغبة الشَّديدة في الصُّورة المتخيّلة أوالمحسوسة هي العامل الأساسيّ الّذي يجعل الفعل الإنسانيّ يخرج إلى الحقيقة.

ويعتقد الفارابي أنَّ فعل الله هو فعل يخرج عنه بالضَّرورة ويحصل عن علمه بذاته الَّذي هو عين ذاته، أمَّا فعل الإنسان فهو مرتبط بالعمليات النَّفسيَّة والعقليَّة والفكريَّة والنُّزوعيَّة مرتبطة بالزَّمان، ولها علاقة بالعلة والمعلول[3]. فالفعل الإنسانيّ بالنّسبة للفارابيّ له علاقة بالعوامل الوراثيَّة والَّتي حدَّدها بالطَّبع ، وهو فعل يتوقَّف صدوره أيضًا على مسائل قلبيّة تسبق حدوث الفعل، وأبرزها الرَّغبة الشَّديدة الَّتي تخرج بالفعل إلى دائرة الواقع.

وقد جعل الفارابيّ المدينة المكان الذي يتحقق فيها الخير والشَّر وبتحقّق الخير تتحقّق المدينة الفاضلة، فالخير والشَّر نابعان من إرادة الإنسان واختياره، **فالمدينة الَّتي يقصد بالاجتماع فيها التَّعاون على الأشياء التي تنال فيها السَّعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة**[4]، فإرادة الخير الَّتي هي الأساس الَّذي يقوم عليه الفعل الإنسانيّ الاجتماعيّ الخير الّذي يؤسس لمجتمع إنسانيّ فاضل.

وقد أوردت تعريف ابن سينا للفعل وهو " الهيئة العارضة للمؤثر في غيره بسبب التأثير" ، **أو الأثر المترتب على الفاعل من حيث هو كذلك ويرتبط الفعل بالمؤثر في غيره من جهتين من حيث**

---

[1] رسائل الكندي الفلسفيَّة، أبو يعقوب بن اسحاق الكندي، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج1، دار الفكر العربيّ، القاهرة، ط2، ص 135.

[2] العقل والفعل، سلمان البدور، ص58.

[3] المصدر نفسه، 59.

[4] المدينة الفاضلة، الفارابي، علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للنَّشر والتَّوزيع، القاهرة، ب.ت، ص 40.

التَّأثير نفسه الَّتي يقتضي فعاليَّة المؤثِّر، ومن حيث الحدوث إذ الفعل حادث ولا بد له من محدث[1].

والفعل النَّاتج عن الحركة هو فعل متناهٍ، لأنَّه فعل الجسم والجسم فعله ليس بذاته أي بذات الجسم إنَّما بقوى هذا الجسم [2].

ويعتبر ابن سينا أن الفاعل هو إمَّا فاعل بالذَّات وإمَّا فاعل بالعرَض؛ فأمَّا الفاعل بالذَّات فهو ما يرتبط حصوله بالعلاقة بين العلَّة والمعلول، من حيث إنَّ علَّة الشَّيء تكون بكامل وعي وإرادة للإنسان، أمَّا الفاعل بالعرض فهو الفعل الَّذي يصدر عرضيًا من الإنسان لظهوره على يد الإنسان، ويشبهه بالفعل المتولِّد[3].

وقد ذكر ابن سينا المقتضيات التي تؤثِّر في حدوث الفعل وتحقِّقه؛ فيرى أنّ" **يسبق صدور الفعل الإنسانيّ أمورًا كثيرة، (تصوّرًا، وتصديقًا، وشوقًا، وإرادةً، وقدرةً، ومرجِّحًا)، لكنَّ أهم ما يسبق الفعل هو الحكم العملي الذي يعتمد أمرين هما نظرة نفعيَّة (ما ينفع أو يضر) وقيمة أخلاقيّة (ما هو جميل أو قبيح) وكلاهما يرتبط بنظرة ميتافيزيقية للخير والشَّر**".[4]

وفي الفكر الإسلاميّ المعاصر ظهرت بعض الأسماء الَّتي تحاول أن تعيد إنتاج فلسفة عربيَّة إسلاميَّة مستقلَّة، فلسفة تعود بنا إلى التُّراث الفكريّ العربيّ الإسلاميّ، وتكون متطلعة على الفلسفات الحديثة والإنتاج العلميّ الغربيّ، ومن هذه الأسماء: "المفكر طه عبد الرحمن"، ومن أهم الكتب التي لها علاقة بفلسفة الفعل هو كتاب (سؤال العمل)، وفي هذا العمل حاول طه عبد الرحمن أن يربط علاقة الفكر النَّظري بالمسؤوليَّة الأخلاقيَّة للفعل الإنسانيّ. و يؤسِّس لمركزيَّة العمل في الإسلام، جاعلًا العمل متقدمًا على النَّظر المجرَّد.

---

[1] العقل والفعل ، سلمان البدور، ص 73.

[2] التَّعليقات، ابن سينا، تحقيق محمد حسن العبيدي، دار الفرقد، سوريا، 2009، ص 103-104.

[3] العقل والفعل ،سلمان البدور، ص73.

[4] المصدر نفسه، 77.

اقتران العقل بالعمل أولى من اقترانه بالقول عند طه عبد الرحمن، حيث افترض طه عبد الرحمن أنَّ فلاسفة اليونان جعلوا العقل مقترناً بالقول، واقتران العقل بالعمل أقرب إلى التَّداول الإسلاميّ. من هنا كانت رؤية طه عبد االرحمن عن ثنائية القول والفعل تقتضي أن يكون القول مقروناً بالفعل غير منفصلٍ عنه؛ فلا يكون القول أولًا ويتبعه العمل في مرحلة أخرى، بل القول والعمل في لحظتين متداخلتين، (حتى إن القول الَّذي ليس تحت عمل لا يعتبر) واعتبر أن العمل في الإسلام له كونيتان " كونية فعليّة" كلُّ الأقوالِ عبارة عن أفعال، و " كونيَّة قصديَّة" كلُّ الأفعالِ لها قصود؛ وهنا إلى جانبة ضرورة أن يكون القول في الإسلام ليس نظريًا مفصولًا عن الواقع والفعل، تأتي ضرورة أن يكون الفعل له " قصد" بمعنى أنَّ الفعل ليس اعتباطيًا.

3.1 فلسفة الفعل في السِّياق الغربيّ

قد أوردت سابقًا أنَّ بعض المعاجم الفلسفيَّة الغربيَّة تنسب لأرسطو التَّأسيس لفلسفة الفعل، ونجد أنَّ أرسطو في مؤلَّفاته يدرس الفعل الإنسانيّ ولا يغيب الجانب الميتافيزيقيّ، الكلمة عند أرسطو هي الفعل، وقد قال زكريا إبراهيم: إن فلسفة الفعل عند أرسطو تتلخص في المقولة العاشرة عنده، وهذه المقولة الَّتي تتحدَّث عن الفعل يفعل والفعل ينفعل. والنَّاظر في مؤلفات أرسطو يرى أنه عني في دراسة الفعل الإنسانيّ من جميع جوانبه، فقد درس أنواع الحركة الإنسانية، وتطرَّق للعقل المنفعل والعقل الفعَّال، بالإضافة لكتاب السِّياسة الَّذي يدرس الفعل الإنسانيّ ضمن الجماعة البشريّة.

يقسم أرسطو الأفعال إلى اختياريّة ولا اختياريَّة، أمَّا الأفعال اللااختياريَّة أو اللاإراديَّة فهي الأفعال الَّتي تقع من الإنسان بقوَّة قاهرة أو بجهل؛ كالفعل الذي يصدر عن الإنسان بسلطة طبيعيَّة أو سلطة

ظالمة، وهناك فعل يقوم به الإنسان تجنُّبا لضرر أكبر منه وهذه الأفعال يسمِّيها أرسطو الأفعال المختلطة وهي أقرب ما تكون للأفعال الإراديّة[1].

أمَّا الأفعال الإراديّة فهي الأفعال التي أصلها في ذات الفعل، فهو مدرك لجميع الظروف والأوضاع الَّتي وقع فيها فعله[2]، فالفعل الإراديّ عند أرسطو هو ما يفعله الإنسان بوعي، ويكون مدركًا لنتائج فعله والظُّروف الَّتي خلق منها هذا الفعل. ويأتي بعدها أرسطو للحديث عن القصد أو ممكن تسميته النِّية وسأتحدث عن هذا في المبحث التَّالي.

المعرفة عند أرسطو هي معرفة عمليَّة ونظريَّة، وتكون المعرفة النَّظريَّة من خلال الصُّورة الفكريَّة الَّتي يمتلكها الإنسان قبل الفعل، أمَّا المعرفة العمليَّة فهي ما ينتج عن القيام بالفعل من خلال العقل العمليّ. فالقوة الفكريَّة تعقل الصُّور من خلال الأخيلة أي الخيال، **والعلم بالقوَّة والإحساس بالقوّة يقابلان الأشياء بالقوة، والعلم بالفعل والإحساس بالفعل يقابلان الأشياء بالفعل** [3]، فهناك المعرفة النظريَّة الَّتي تكون في الإحساس بعدها تنتقل إلى العقل **فلا شيء في العقل لم يكن في الحس**[4]، والمعرفة العمليَّة بعد القيام بالفعل.

ومن أشهر شّراح أرسطو الاسكندر الأفروديسي وتأثر به من الفلاسفة المسلمين ابن سينا، اعتبر الاسكندر الأفروديسي بأن العلة الأولى للوجود محرك غير متحرك، تدفع الإنسان للحركة نحو الفعل دون أن تتحرك، وهذه الحركة التي تكون نحو المحرك الذي لا يتحرك هي التي تجعله يتخلص من الهيولي أو المادة[5]، واهم نقطة عند الإسكندر الأفروديسي هي أنه جعل العقل هو

---

[1] الأخلاق إلى نيقوماخيس, أرسطو ، ص 266.

[2] المصدر نفسه، 266

[3] النفس، أرسطاطوليس، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، تحقيق وتصدير مصطفى النَّشار، المركز القومي للتَّرجمة، القاهرة، مصر، ط2، 2015، ص 120.

[4] المصدر نفسه، ص 120.

[5] أرسطو عند العرب، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1978، ص16.

الفعل، ومرتبة العقل عنده أسمى المراتب، حيث يقول : **أفضل الحياة العقل، وأشرف جميع ما له حياة** [1]، وفي هذا تأسيس لنظريته الميتافيزيقية معتبرا أن الحركة الميتافيزيقية في العقل هي الفعل.

حديثًا هناك العديد مِمَّن اهتم بدراسة فلسفة الفعل، وقد دخلت دراسة فلسفة الفعل في الجانب العصبيّ، فأصبح هناك دراسة للفعل الإنسانيّ من خلال علم الأعصاب، وقد توصَّلت بعض الدّراسات إلى أنّ الإرادة الحرَّة غير موجودة وأنَّ أفعال الإنسان حتميَّة لها علاقة بالأسباب الوراثيَّة والبيئيَّة والاجتماعيَّة.

تتَّصل النَّظريَّة الحتمية في الفعل الإنسانيّ بالسَّببيَّة؛ وذلك لأنَّ هناك فكرة مفادها أنَّ من يؤمن بالسببيَّة يرى أنَّ الفعل الإنسانيَّ هو فعل محتم تبعًا للعلاقة الحتميَّة بين السَّبب والمسبّب، ومن الانتقادات على هذا أنَّ الحتميَّة الطَّبيعيَّة فيزيائيَّة، أي هناك فرق بين ما يحدث نتيجة السّبب والمسبب وبين ما نفعل، فالأفعال لا تحدث فقط.[2]

وهناك فلاسفة درسوا فلسفة الفعل الإنسانيّ من خلال علاقته باللُّغة وعلاقته بالعقل مثل: جون سيرل، فقد درس الوعي الإنسانيّ، والقصديّة، والإرادة الحرَّة، والإدراك والسَّببيَّة، العقليَّة.

واعتبرها مشكلات في فلسفة العقل، وعلى الرَّغم من أن سيرل أدخل هذه الموضوعات تحت مسمى فلسفة العقل إلَّا أنَّ هذه الموضوعات أيضًا جزءًا من فلسفة الفعل، فالفعل الإنسانيّ يتأثَّر بشكل مباشر في هذه الموضوعات العقليَّة وهي من المقتضيات الَّتي توجب الفعل.

---

[1] أرسطو عند العرب، ص 18.

[2] Micheal lacewing, Deteminism and human action, alevel philosophy.co.uk.hadouts_ethics,p2.

ويأتي "جون ديوي" في دراسته للفعل الإنسانيّ ويركّز على النِّيَّة في الفعل الإنسانيّ، ويتحدَّث عن النّية السَّابقة للفعل والنِّيَّة الملازمة للفعل، فيؤكّد ديوي أنَّ الأفعال الإنسانيَّة ليست جميعها تأتي من نيّة سابقة للفعل فالنّية السَّابقة للفعل قد تتغيَّر بناءً على متغيرات خارجيَّة أو داخليَّة[1].

عاصر موريس بلوندل فيلسوفاً فرنسياً اسمه بول ريكور درس ريكور الفعل الإنسانيّ والإرادة الإنسانيّة من خلال كتابه فلسفة الإرادة الإنسان الخطاء، وهذا الكتاب ينطلقُ من دراسة الفعل الإنساني من خلال الشر الذي يفعله الإنسان، منطلقاً من مفهوم اللاعصمة وهو مفهوم يؤكد على أن الإنسان خطاء وأن الخطأ يأتي من خلال العمل، وحاول ريكور في فلسفته تقليص المسافة بين الخيال المحض والفهم الكلي بتفكر في "العمل" ثم في الشعور[2].

اعتبَر ريكور أن الإرادة تسبقها مظاهر عاطفية وهي المقتضيات العملية للإرادة، وهذه المقتضيات هي الحافز[3]، فالجانب العاطفي التحفيزي للإرادة وهو الرغبة، باعتباره مرحلة قبل الإردة تدفع الإنسان لأن يريد الفعل.

4.1 مقتضيات وجوب الفعل

إنَّ أي فعل حتَّى يكون موجودًا لا بدَّ له من مقتضيات تسبقه، وتحاول الفلسفة الحديثة دراسة العمليَّات العقليَّة النَّفسيَّة الَّتي تسبق وجود الفعل وتؤثّر فيه، وقد وردت في المؤلَّفات الكلاميَّة والفلسفيَّة الغربيَّة والقديمة دراسة لهذه المقتضيات وأسهبت فيها، وفي هذا المبحث سأذكر هذه المقتضيات وما الاختلافات الفكريَّة والفلسفيَّة حولها، ومحاولة الإحاطة بها.

---

[1] Intention in Action with John McDowell, University of California television, 2008.5.1, Retrieved from, https://youtu.be/dJYtuF69OMM.

[2] فلسفة الإرادة الإنسان الخطاء، بول ريكور،ترجمة عدنتان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2008.

[3] المصدر نفسه، ص90.

لقد تحدثت سابقًا عن أنواع الأفعال، ومن هذه الأفعال الأفعال الإراديَّة أو الأفعال الَّتي تنتج عن الإنسان من وعي منه وإدراك أو نيَّة سابقة على الفعل أو علم، وفي هذا الفصل أحاول الإحاطة بهذه المقتضيات الَّتي تسبق الفعل والَّتي هي القدرة والإرادة والعلم والإدراك والوعي والنِّية، وما أهميَّة المعرفة حول هذه الموضوعات وكيف تؤثِّر على الفعل الإنسانيّ.

تعرّف القدرة: على أنَّها صفة تؤثِّر على وفق الإرادة فخرج عنه العلم لعدم تأثيره، وخرج أيضًا ما لا يؤثِّر على وفق الإرادة كـ" الطَّبيعة" أو قيل إنَّ القدرة ما هو مبدأ للأفعال المختلفة والمراد بالمبدأ هو: الفاعل المؤثر[1]؛ فالعلم بنفع الشَّيء مثلًا لا يلزم وجود القدرة عليه، فقد يمتلك الإنسان العلم بالنَّفع ولا يمتلك القدرة. والعجز عند جمهور المعتزلة والأشاعرة هو ضدّ القدرة[2].

إن وجود القدرة على الفعل في الإنسان يعني أنَّ هذا الإنسان يمتلك القدرة الجسديَّة والقدرة العقليَّة والقدرة الصّحيَّة للبدء بفعل ما، وهذا إن أثبتت القدرة للإنسان، فالأشاعرة يعتبرون إنَّ الإنسان لا يمتلك القدرة على الفعل إنَّما كما ورد سابقًا هو يمتلك القدرة على العزم فقط.

وأظنّ أنَّ وجود القدرة الإلهيَّة العليا الَّتي من الممكن أن تتدخَّل في النِّظام السَّببيّ في القدرة الإنسانيّة، لا يعني انتفاء وجود القدرة في الإنسان؛ لأنَّ الإنسان منح هذه القدرة من أجل القيام بالفعل الإنسانيّ وترافقت مع هذه القدرة المقتضيات الأخرى العقليّة، والنفسيّة، وقدرته على التّحكم بها من أجل أن يقدم على الفعل والَّذي من المفترض أن يكون فعلًا خيراً بناءً على الخيارات المختلفة الَّتي وجدت مع الوجود الإنسانيّ من خير وشرٍّ وغيرها.

وتعد الإرادة ملازمة للقدرة وقد اختلف في تعريفها وأشكل على الباحثين مقاربة معناها من معنى الرَّغبة في الفعل الإنسانيّ؛ فأوّل ما يتبادر إلى الذِّهن هو أنَّ الإرادة هي الرَّغبة، ولذلك فقد اقترب معنى الرَّغبة من معنى الإرادة، والبعض يرى أنَّ الرَّغبة تقترب أكثر من معنى الشَّهوة، ويعتبر

[1] نشر الطَّوالع ، ص264.

[2] المصدر نفسه، 265.

أرسطو أنَّ الشَّهوة هي من ضمن الأفعال الإراديَّة للإنسان، لأنَّ الإنسان يفعل الأفعال الشَّهوانيَّة بوعي إذاً فهو مريدٌ لها[1]. وأظنُّ أنَّ الشَّهوة من الممكن التَّحكّم بها عقليًا، وذلك من خلال إرادتها في مواضعها الَّتي تتناسب مع الفعل الإنسانيّ الخلقيّ، أمَّا القيام بالفعل الإنسانيّ الشَّهوانيّ بوعي دون الالتزام في نظام الجماعة الأخلاقيّ، يعني أنّ هذا استسلام للشَّهوة وليس إرادة الشَّهوة.

يعرِّف البعض الإرادة بأنَّها اعتقاد النَّفع أو ظنّه، فمعنى أنّ من رأى في فعل ما نفع أراده أو ظن أنَّه نافع، ويعرِّفها الأشاعرة: على أنَّها صفة مخصَّصة لأحد طرفي المقدور بالوقوع، والإرادة تحصل عند التَّعريف الأوَّل والَّذي قال به معظم المعتزلة باعتقاد النَّفع أو ظنِّه فقط عند حصول تفضيل على أحد طرفي الفعل المقدور، أمَّا الأشاعرة في التَّعريف الثَّاني فيرون أنَّ المريد يختار طرفًا من طرفي المقدور لترجيح شخصه لا لنفع موجود فيه.

و القاضي عبد الجبَّار لا يرى أنَّ الإرادة هي اعتقاد النَّفع في الفعل ، إنَّما يرى أنَّ اعتقاد النَّفع لا يحتِّم الإرادة فالمرء قد يعتقد النَّفع لكن لا يقدم على الفعل، وقد يرى ضررًا في الفعل ويريده وهنا يؤكّد الفصل بين الاثنين.

والإرادة والكراهة مغايرتان للشهوة؛ لأنَّ الإنسان يريد شيئًا، لكنَّه ينفر منه مثل الدَّواء الَّذي نستخدمه كعلاج، وقد يشتهي الإنسان ما لا يريد؛ مثل بعض اللَّذات المحرَّمة[2].

اعتبر القاضي عبد الجبار الشَّهوة من الأمور المدركة، وكونها مدركة ينفي أن الإرادة هي الشَّهوة، إضافة لأنَّ الشَّهوة هي ذات نفع ولا يمكن أن تكون ذات ضرر أمَّا الإرادة فمن الممكن أن تكون ذات ضرر[3]، والشَّهوة لا يمكن أن تراد من الآخر أمَّا الإرادة فممكن لأنَّ الشَّهوة شيء فردي لا يمكن أن يطلب من الآخر .

---

[1] الأخلاق إلى نيقوماخوس، أرسطاطوليس، ترجمة أحمد لطفي السَّيد، دار الكتب المصريّة ، القاهرة، ج1، ص 274.

[2] نشر الطَّوالع، 268.

[3] المغني، القاضي عبد الجبَّار، ج الإرادة، ص 35.

بعض الأفعال عند القاضي عبد الجبار تجعل الفاعل مريدا وهي الأمر والخبر[1]؛ وعند إصدار فعل الأمر للآخر، معنى ذلك أنك تريد منه ما أمرته به، وما يخبر عنه المرء من فعله الذي قام به فهو مريدا له لا محالة.

ويعتبر "كانط" أنَّ الإرادة لا يجب أن تكون إرادة مقترنة في القانون فقط، ولا يجب أن تكون من أجل الواجب الخلقيّ وحده، إنَّما لا بدَّ من خلق دافع إراديّ للقانون الأخلاقيّ، والقانون الأخلاقيّ عنده الَّذي يُسنّ من الأوامر الإلهيَّة يجعل من الإرادة إرادة حرَّة من أجل ذاتها، فالالتزام القانونيّ يصبح لا من أجل تجنب العقوبات بل من أجل الامتثال للأوامر الإلهية[2]. وهذا يعني أنَّ "كانط" يريد أن تكون الإرادة الأخلاقيّة من التنشئة الدَّاخليَّة من خلال القلب والعقل لدافع داخليّ ذاتيّ للفعل الخلقيّ بمعزل عن القانون الإلزاميّ الّذي يلزم القانون بمعزل عن الدّافع الداخليّ.

سبق وذكرت موضوع النيَّة في الفعل في فلسفة "جون ديوي"، والنِّيَّة هي مسألة مهمَّة، وهي حديث عقليٌّ عن قرار بالقيام بفعل ما، وقد أورد "ديوي" في المادَّة المصوَّرة السَّابقة[3] مثالًا عن النّيَّة السَّابقة للقيام بالسَّير على ممرِّ المشاة عندما تصبح الإشارة حمراء، فهذا مثال بسيط على أنَّ الإنسان يقوم بنية مسبقة على الشَّيء قبل فعله، لكن مسألة النِّيَّة تختلف من فعل لآخر، فبعض الأفعال تكون تخطيطية للزمن والَّتي من الممكن أن تتبدَّل بناءً على المعطيات الخارجيَّة والظُّروف الَّتي تتبدَّل. إذن فالنّيَّة سابقة على الإرادة والعزم، تتبدل مع التغيرات الزمنية.

ويتحدَّث أرسطو عن مسألة من المسائل الَّتي تسبق الفعل ولكنَّها ليست النِّيَّة إنَّما القصديَّة هي السَّبب الدَّافع للقيام بالفعل، بمعنى ما هو الغرض للقيام بفعل ما، والقصد إمَّا أن يكون نفعيًا ذاتيًا، أو

---

[1] المغني في أبواب التوحيد، القاضي عبد الجبار، جزء الإرادة، ص 18.

[2] نقد العقل العملي، عمانوئيل كانط، ترجمة يوسف هنا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2008, ص224.

[3] **Intention in Action with John McDowell, University of California television, 2008.5.1, Retrieved from, https://youtu.be/dJYtuF69OMM.**

أن يكون غرضًا دافعه دافع أخلاقي. يعرِّف أرسطو القصديَّة على أنَّها التَّفكر السَّابق للنِّيَّة[1]. ولكن إذا كانت القصديَّة هي التَّفكر السَّابق للنِّيَّة فما هي النِّيَّة؟

يفرِّق أرسطو بين القصديَّة والرَّغبة، باعتبار أنَّ الإنسان الَّذي يفعل بقصد أفعاله تكون مختارة ويكون اختياره بمعزل عن رغباته، فهو يفعل بناء على القصد، وهذا هو الطَّريق إلى الفضيلة، أمَّا الاختلاف بين القصديَّة والإرادة، هي أنَّ الإنسان من الممكن أن يريد شيئًا مستحيلًا، بينما لا يمكن أن يقصد شيئًا يستحيل تحقيقه[2].

ومن المقتضيات الَّتي تفرض على الفعل والَّتي تكون مهمَّة هي الوعي، فالوعي عند الإنسان من القضايا الَّتي توسّع في دراستها حديثًا وهي مسألة مشكلة؛ لأنَّها مرتبطة بالميتافيزيقيا، فالبعض أنكر وجود الوعي لأنَّها مسألة غير قابلة للدِّراسة العلميَّة. وقد ورد الحديث عن الوعي في علم الكلام بأنَّه العلم؛ فقد ذكر "الإيجي" ضرورة أن يكون الإنسان عالمًا بوجوده وهذا علم خاص[3].

وفي " نشر الطَّوالع" ذكر أنَّ الإدراكات: هي إمَّا ظاهرة كقدرة الإدراك في الحواس الخمسة أو الإدراكات الباطنة كالتَّعقّل والتَّوهم والتَّخيل، وقد قسَّم الإدراكات الباطنة إلى تصوُّرات وتصديقات. فالإنسان إذن يدرك عن طريق الحواس أولًا، وهذا هو الإدراك الحسيّ، فيدرك من خلاله طبائع الأشياء، أمَّا الإدراك الباطنيّ فهو ما يمكن تسميته على أنَّه أفعال القلوب كما ذكر عند المعتزلة وهو الإدراك الَّذي يرتبط بالعقل والتَّفكر والعوامل النَّفسيَّة والتَّصوّرات الَّتي يرسمها المرء عن الإدراكات الحسيَّة، فالمرء يرسم صورًا بتجمّع المدركات الحسيّة، وهذا ما سمَّاها الفلاسفة الصُّور

---

[1] الأخلاق إلى نيقوماخوس، 275.

[2] المصدر نفسه، 276.

[3] المواقف، عبد الرَّحمن الإيجي، عالم الكتب، بيروت، 1999م, ص 9.

العقليَّة. وقد رفض علماء الكلام فكرة الصُّور العقلية؛ وبطلانه يأتي من أنَّهم يعتقدون أنَّ الوجـــود الذِّهنيّ في العقل يلزم الوجود الحقيقيّ للشيء، فالنَّار في العقل تسبِّب الإحراق[1].

5.1 الوجود والوجدان والفعل:

لا يمكن أنْ نقول إنَّ الوجود واحد من مقتضيات الفعل؛ لأنَّ الفعل لا يمكن أن يكـــون مـــن دون الوجود، فالفعل الإنسانيّ هو النّاتج الطَّبيعي لتفاعل الموجود وهو الإنسان مع الموجودات الأخـــرى الموجودة في الوجود، كالطَّبيعة والمجتمع البشريَّ والحيوانيّ والنَّباتيّ والكون والأفلاك، فينتج عن هذه التَّفاعلات المستمرَّة ما نسمّيه الوجود الإنسانيّ، وذلك لأنّه على الرّغم من تواجـــد موجـــودات أخرى كثيرة غير الإنسان في هذا الوجود، إلّا أنَّ وجوده هو المركزيّ في هذا الكون، فهو المتحكِّم الأوَّل بكل هذه الموجودات الموجودة في الكون، ويحاول من خلال العلوم المختلفـــة أن يتدارســـها ويسخِّرها لخدماته الشَّخصيَّة.

يفرِّق الفلاسفة المسلمون والمتكلمون بين نوعين من الوجود، وهما الوجود الخارجيّ، وهو عبارة عن " كون الشَّيء في الأعيان"، أمّا الوجود الذِّهنيّ فهو عبارة عن " كون الشَّـــيء فـــي الأذهـــان" والوجود المطلق هو مطلق الكون[2]، والوجود الَّذي في الأعيان هو الوجود الماديّ.

يعتبر الكنديّ أنَّ الوجود الإنسانيّ يتلخَّص بالإدراك؛ فالإدراك الإنسانيّ إمّا أنْ يكون مـــن خـــلال العقل أو من خلال الحسّ، والوجود الحسيّ يتلخَّص في الأشياء الجزئية الهيولانيَّة الواقعـــة تحـــت الحواس، فالأشياء الجزئيَّة: هي الأشخاص للأنواع، أمَّا الوجود العقلـــيُّ: فهـــو مـــن أجـــل إدراك الكلّيات، والأنواع والأجناس: هي أشياء كليَّة يتم إدراكها إدراكًا عقليًا[3].

---

[1] نشر الطَّوالع ، ص255.

[2] المصدر نفسه، 108.

[3] الكندي، رسائل الكندي الفلسفيَّة، ج1، ص 38.

يذكر "محمد باقر الصَّدر" بعض النَّظريات الوجوديَّة الَّتي ترتبط بسببيَّة الفعل الإنسانيّ[1] وهي:

1. نظريَّة الوجود: وهي الَّتي تعتبر أنَّ الوجود الإنسانيَّ مرتبط بقانون العلَّة والمعلول؛ فالوجود بحاجة إلى علَّة من أجل أن يكون موجودًا، وقد أخذ في هذه التَّجربة بعض الماركسيين الَّذين قالوا: إنَّ التَّجربة أثبتت أنَّ الوجود بحاجة لعلَّة.
2. نظريَّة الحدوث: وهي نظريَّة تقول بأنَّ مبدأ العلَّة والمعلول ضروري فقط في الأشياء الحادثة أي الأشياء التي حصلت بعد العدم، وأمَّا ما قبل هذه فليست بحاجة لمبدأ العلَّة والمعلول.
3. نظريَّة الإمكان الذَّاتيّ والإمكان الوجوديّ: ويوضّح "الصَّدر" نظريَّة الإمكان الوجودي فيقول إنَّ الوجود للعلَّة والمعلول ممكن دون العلاقة الَّتي تربطهما، فالعلَّة ممكن أن توجد منفصلة عن علَّتها، والمعلول من الممكن أن يوجد بمعزل عن علَّته لذلك فهذه العلاقة ليست ضروريَّة.

حاولت النَّظريات الثَّلاثة أن تدرس الوجود الإنسانيّ وحاجته إلى نظام العلّة والمعلول الضَّروريّ، وتأتي أهميَّة هذه النَّظريات بأثرها على الفعل الإنسانيّ، فالفعل الإنسانيّ إمَّا أن يكون محتومًا محكومًا بالقوانين الكونيّة، وإمَّا أن يكون حرًا لا يتقيَّد بالظُّروف البيئيّة والاجتماعيّة، ومن الممكن أن يوجد بمعزل عن النّظام السَّببي.

وقد غُيّبت العاطفة عن الدَّرس الفلسفيّ لأنّ علاقة الفلسفة بالعقل والمنطق علاقة وثيقة، ولكن كما أنَّ الفعل الإنسانيّ له ما يسبقه من عمليَّات عقليَّة تحركه فهناك أيضًا محرك عاطفيّ، فتغييب الشُّعور عن الدَّرس الفلسفيّ ليس صحيحًا لأنَّه جزء مهم من الوجود الإنسانيّ، ومحرك لا يقلُّ أهميَّةً عن العقل للفعل الإنسانيّ.

لقد كانت العاطفة جزءًا من التَّحفيز على الفعل الإنسانيّ وما زالت؛ فالخطابة مثلًا من الموروثات الَّتي استخدمت في التَّاريخ الإسلاميّ من أجل التَّحفيز على فعل ما كالتحفيز في الغزوات، وعلى

[1] فلسفتنا، محمد باقر الصَّدر،، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط12، 1982، ص 316-318.

الرَّغم من التَّطور العلميّ الكبير المخاطب للعقل والَّذي يحاول دراسة الفعل الإنسانيّ بطريقة علميّة بحتة، إلَّا أنَّ الوظيفة الحسية للوجدان لها دورها الهام جدًا ولها علاقة وثيقة أيضًا بالوجود الإنسانيّ؛ فالوجدان مرآته الجسد والذَّات؛ فمن خلال الجسد والذَّات يكون الوجدان وسيلة للمعرفة مع العقل، وليس العقل المجرد وسيلة المعرفة الوحيدة مثل ما قال "كانط"[1].

فالوجدان جزء من الوعي ويمكن من خلاله أن يتمَّ التَّحفيز على الفعل الخلقيّ، ومن الممكن أن يكون مدخل الوجدان للتَّحفيز على الفعل الخلقيّ أهمّ من العقل، لأنَّ العقل لو حصر بالمصالح الشَّخصيَّة والتَّبريريَّة بإمكانه أن يبرر أضخم الجرائم.

ويتحدَّث "طه عبد الرحمن" عن مجموعة من المغالطات الَّتي تأتي في مفهوم العقل وعلاقاته في الفعل ومقدمات الفعل، فيعرض لمجموعة من الإشكالات أوَّلها أنَّ الأصل في التَّصور الإسلاميّ أن يقترن العقل بالعمل لا أن يتمّ تجريد العقل، فتعاد أسباب اقتران العقل بالعمل فلا عقل بلا عمل ولا عمل بلا عقل إلَّا في حالة الفعل الذي يصدر عن غافل لا يطلق عليه عملًا[2]. ويعرض بعدها لمشكلة الفصل بين العقل والحسِّ والفصل بين العقل والقلب، فالفصل بين الحسِّ والعقل ليس صحيحًا فهو يرى أنَّ الحس لا يتواجد في الإنسان إلَّا بالعقل فالإدراك الحسيّ مرتبط عنده بالإدراك العقليّ، أمَّا فصل العقل عن القلب فقد تمَّ بحيث جعلوا القلب وظيفته وجدانية صرفة محيدة عن عمل العقل، وقد جوز الفلاسفة اجتماع كلٍّ من وظيفة العقل والقلب ولكن دون أن تتعلَّق واحدة في الأخرى[3].

إن أعلى درجات الشُّعور بالوجود الإنسانيّ تكون من خلال الفعل الباطن الَّتي تخلقه الحياة المضطربة، أي ذلك النُّزوع القويّ المشبوب بالعاطفة[4]، فكما ذكرت سابقًا العاطفة والنُّزوع الوجداني هي الجزء الأساسي الَّذي يدفع بالفعل الإنسانيّ، والشُّعور والعاطفة والإرادة هي تخرج

---

[1] تيسير شيخ أرض، الوجود والصَّيرورة والفعل، ص 103.

[2] سؤال العمل، طه عبد الرحمن، 58.

[3] المصدر نفسه، 70.

[4] الزمان الوجودي، عبد الرحمن بدوي، ص 155.

بالفعل الإنسانيّ إلى دائرة الوجود الفعليّ. يقول عبد الرَّحمن بدوي: إنّ الفعل الإنسانيّ يتأرجح بين كفَّتي العقل والعاطفة.

يرى تيسير شيخ أرض أنَّ الوجدان يجب أن يعمل في الذَّات والجسد[1]، فالوجدان لا وجود له في الوجدان فقط ولا وجود له في الجسد فقط، وهو عبارة عن اجتماع كل منهما معًا، والوجود لا بدَّ أن يوعى والوعي لا يكون إلَّا من خلال الذَّات[2].

[1] تيسير شيخ أرض، الوجود والصَّيرورة والفعل، ص 42.

[2] المصدر نفسه، ص 42.

الفصل الثَّاني:

سؤال الفعل

والآن بعد أن حاولت أن أحيط في الفصل السَّابق في ماهيَّة الفعل وفلسفته والنَّظريات والأفكار، الَّتي شملته وتوسَّعت به، انتقل في هذا الفصل إلى دراسة الفعل كسؤال وكفلسفة من خلال الأنموذجين؛ وذلك إنَّما من خلال مناقشة سؤال الفعل من ناحية الميتافيزيقية وناحيته العمليّة ومن خلال العمليات العقليّة والفكريّة الّتي تنقل الفعل إلى الوجود. فعلى الرَّغم من كون سؤال الفعل سؤالاً مقلقًا وغامضًا إلَّا أنّ محاولة الإحاطة به ضرورية.

يحاول هذا الفصل الانتقال مع "موريس بلوندل" في الأسئلة التَّشكيكيَّة الَّتي يطرحها والَّتي تحاول أن تحيط بالفعل وتكوين فلسفته الخاصَّة حوله، ونركِّز على سؤال الوجود والعدم للفعل والَّذي طرحه "بلوندل" في بداية كتابه محاولًا أن يؤكِّد على أنَّ الحلَّ العدميّ للفعل هو ليس الحل الأمثل، وأنّ هناك حلولًا أخرى من الممكن أن ينطلق منها الإنسان. ويذكر "شرح البيضاوي" بعض الآراء الفلسفيَّة والكلاميَّة حول العدم ومفهومه وكيف أنَّ البعض جعل من العدم الأصل في الممكنات، ويقدّم نقده عليها، ويفصّل "شرح البيضاوي" في مواضع مختلفة في كتابة حول الوجود والعدم والإمكان، وأحاول أن أربط هذه الفلسفة الكلاميَّة بلوندل وبفلسفة الفعل.

أمَّا الوعي فقد ركَّز عليه بلوندل في مواضع مختلفة لأنَّه الأساس الَّذي يعتمد عليه في إثراء نظريَّته، فقد أكَّد في مواضع مختلفة كيف أنَّ التَّحكُّم في الوعي ينشأ فعلًا إنسانيًا حرًا، وكيف أنَّ الإنسان من خلال وعيه يستطيع أن يتحكَّم ولو بالجزء الممكن من مصيره. ويقابل الوعي عند شرح البيضاوي مصطلحي الإدراك والعلم، وقد ورد مصطلح العلم في معنى مقارب للوعي في المؤلَّفات الكلاميَّة، ولا شكَّ في وجود رابط بين الفعل الإنسانيّ ومصطلحات شرح البيضاويّ، وهنا نحيط بهذه المصطلحات ونقاربها لما ورد من فلسفة الفعل في كتاب بلوندل.

ويأتي مصطلح السَّببية في علاقة ورابط بين الوعي والسَّبب؛ ويحاول بلوندل أن يتساءل عن من يمتلك الأسبقيَّة في الفعل السَّبب أم الوعي. أمَّا في شرح البيضاويّ فالنِّظام السَّببيّ يرتبط بالميتافيزقيا بشكلٍ وثيقٍ لأنَّ علمَ الكلامِ أساسٌ هو علم عقيدة، ولكن هناك شرح مفصَّل لعلاقة العلَّة بالمعلول سأحاول أن أربط هذه النُّقطة في النِّظام السَّببيّ وفي نظريَّة بلوندل حول ربط السَّببية بالوعي.

وأخيرًا نأتي إلى مفهوم النّيَّة والحياة الدَّاخليَّة للإنسان وعلاقتها بالفعل الإنسانيّ، وكيف أنَّ هذه الحياة الدَّاخليَّة والنِّيَّة الدَّاخليَّة للفعل أن تؤثِّر على الفعل، وكيف أنَّ تحكُّم الإنسان في حياته الدَّاخلية ونواياه يجعله يقدم على القيام بفعل حرّ.

1.2 سؤال الفعل بين الوجود والعدميّة:

عند ذكر الوجود والعدم إلى جانب الفعل فنحن أمام معالجة علاقة الفعل الإنسانيّ في الوجود الإنسانيّ، ولو أنّ هناك اعتقادًا وأنا أؤمن به أنَّ الفعل الإنسانيّ هو أهمّ ما يميّز الوجود الإنسانيّ، فالفعل يدلل على الوجود وهما لا يفترقان، إلَّا أنَّ هناك طرح فلسفيّ يحاول أن يحلَّ إشكال هذا السُّؤال الوجوديّ حول الفعل من خلال القول بعدميّة الفعل الإنسانيّ . فهذا المبحث سيحاول الإجابة

عن سؤال الفعل ما هو؟ وما الذي جعل الفلاسفة يطرحون عدميَّة الفعل الإنسانيّ لهذا السّؤال؟ وما نقد بلوندل على هذا الطَّرح؟ وكيف طرح المتكلِّمون مسألة الوجود والعدم وكيف ارتبطت بالفعل؟

يبدأ بلوندل كتابه الفعل بطرح أسئلة تشكيكيّة في عناوين الكتاب حول مشكلة للفعل، إذا ما كان هناك مشكلة للفعل، وما إذا كان حل هذه المشكلة من خلال القول بعدميّة الفعل الإنسانيّ، يقول بلوندل: إنَّ الحلَّ العدميّ ليس صالحًا لمشكلة الفعل ويحاول أن يدلل على هذه المسألة، بداية يقول: إن العدميَّة لا يمكن أن نحقِّقها، وعدم القدرة على تحقيقها يعني أنَّنا لا نستطيع أن نريدها. ويقول بلوندل: إنَّ فكرة إرادة العدم وتجربتها هي تجربة جيدة لمن يريد أن يجرِّب متع الحياة كاملة دون أي قيد يقيده؛ فهو يرى في هذه العدميّة راحة من التَّفكير في الالتزامات الَّتي يؤسِّس لها الموت، فالموت هو جواب مهم عن سؤال العدميَّة[1].

نعم كيف يمكن لمن يرى أنَّ الكون لا جدوى له، وأنَّ الفعل والوجود عدمي أن يكون لديه التزامات منعزلة عن مصالحه الشخصيَّة ورغباته؟ لا يمكن ذلك فهو يرى أنَّ كلَ ما يفعل في الوجود من فعل أخلاقيّ فلسفيّ دينيّ هو عدميّ، بالتَّالي فالمتعة هنا هي الأساس الذي يجعل للحياة معنى، والبعض قد يصل إلى أنَّ الانتحار واختيار الموت هو الأولى، لأنّ اللاجدوى فكرة مقلقة تصل بالإنسان إلى أقصى تفكير سلبي.

العدم عند بلوندل نسبة إلى المذهب الذي ظهر في عصره وهو مذهب العدمية، وهذا المبدأ يقول بأن كل ما يفعله الإنسان ويريده ويرغبه بلا جدوى، فالفعل الإنساني لا قيمة له، وهكذا يصبح الإنسان مريدا للعدم، وإذا سيطرت العدمية على الفكر الإنساني، فإن الفعل الإنساني يصبح محدودا لا أخلاقياً.

---

[1] Action, Blondel, p 44.

ننتقل للفعل بين الوجود والعدم في شرح البيضاوي والحديث عن الفعل ليس ظاهرًا إنَّما من الممكن أن نستنبطه من النَّص، ذكرت من قبل أنَّ تقسيم الوجود لوجود خارجي ووجود ذهني، وتشترك هذه الموجودات بالكون، وهذا الاشتراك إنَّما يكون من خلال الاشتراك المعنويّ وهذا الاشتراك استدلّوا عليه من خلال الحديث عن الموجود والَّذي ينقسم إلى "الواجب" و " الممكن"، وينقسم الممكن إلى " الجوهر" و" العرض"[1].

إن الفعل الإنسانيّ والانفعال من المقولات التي تنزل تحت العرض فهو إذًا من الممكنات، وإذا كان العرض من الممكنات فالحديث عن العدم والفعل يكون من خلال المعدوم الممكن ولـــيس المعـــدوم المحال؛ فالمعدوم المحال هو ما لا يمكن تحقّقه، أمّا المعدوم الممكن فهو وإن ثبت فإنَّ وجوده وجود ذهني أو خارجي وليس بثابت ومتقرر في الخارج[2]. والفعل المعدوم هنا بمعنى عكس الموجود، فهنا معنى العدم هو عدم وجود الشيء، والمعدوم الممكن إذا ما تحققت علله مـــن الممكـــن أن يكـــون موجوداً.

انظر هنا فإنّ الوجود الذهنيّ أو الخارجيّ هو كالوجود العقليّ عند الفلاسفة فالممكنات العقليّة قـــد تسوّغ وجود شيء ما في العدم، ولكن هذا الشَّيء الموجود في العدم من الممكن أن ينتقل من العدم إلى الوجود، لأنَّه وإن كان وجوده وجودًا ذهنيًا إلَّا أنَّه وجود ذهنيٌّ ممكن، فمن الممكن أن ينتقل من المعدوم الموجود في الذِّهن، إلى الممكن في الواقع.

وقد فصَّل شرح البيضاويّ فكرة الإمكان وسنتحدث هنا عن الإمكـــان الـــذَّاتي وعلاقتـــه بالفعـــل الإنسانيّ، فالإمكان الذَّاتي له عدة أحكام وهذه الأحكام هي[3]:

---

[1] نشر الطَّوالع، ص 108 –109.

[2] المصدر نفسه، ص112.

[3] المصدر نفسه، ص 146.

1. الإمكان علَّة للحاجة، أي أنَّ الإمكان يحوج الممكن إلى السَّبب أي المؤثِّر، لأنَّ الإمكان هو استواء طرفي الوجود والعدم للممكن بالنِّسبة إلى ذاته. وهذه سنفصلها في جزء السَّببيَّة.
2. الممكن لا يكون أحد طرفيه، أي الوجود والعدم، أولى به في ذاته، والمراد أولويَّة لا تصل إلى حد الوجوب والامتناع، وإلا فالممكن ما ليس بواجب ولا ممتنع، فيكون البحث فيه ممَّا لا فائدة فيه، ولا يبقى للخلاف فيه مجالًا مع أنَّهم خالفوا.

وهنا أفصِّل في الخلاف وفي فكرة العدم الَّتي نسبت للأشياء وعلاقته في الفعل الإنسانيّ، يذكر في شرح البيضاويّ رأي جماعة ما في فكرة العدم، فيقولون إنَّ العدم أولى بالممكنات السيالة كالزمن والحركة[1]، والحديث عن أولولية العدم للحركة يعني أولوية العدم للفعل الإنسانيّ أيضًا، وذكر أولوليَّة العدم ذلك لإثبات جواز بقاء هذه الممكنات، ويعترض البيضاويّ ويقول: إنَّ هذه الممكنات أولى بها أن تكون غير باقية لا الأولى فيها العدم[2]، إذن فالممكنات السّيالة أي المستمرَّة مع الوجود الإنسانيّ الأولى بها أن تكون فانية نهائية في نقطة ما، فالحركة إذن والفعل الإنسانيّ أولى به أن يكون ممكن الوجود وغير باقٍ لا أن يكون عدميًا. فالزَّمن هو الحركة المستمرَّة في الوجود الإنسانيّ ولكنّ هذه الحركة غير باقية.

العدم لغة هو عكس الوجود، وهنا معنى العدم الذي ينسب للممكنات هو ضد الوجود، متى ما لم تظهر العلة التي تسبب ظهور الممكن فالأصل أن تنسب إلى العدم، فالحركة والزمن عدميان إن لم تظهر علة تنقلهم من الممكن إلى الواقع، فعند القول أن الشيء ممكن يعني أنه ليس موجوداً أي معدوماً، واعتبر شرح البيضاوي أن سهولة نسب العدم إلى الممكن لا يعني أنه الحقيقة.

[1] نشر الطَّوالع، 148.
[2] المصدر نفسه، 148.

وقالوا: إنَّ العدم أولى بالذَّات بالممكنات كلَّها لأنَّ العدم ينفي جزءًا من عللها، أمَّا تحقّق الوجود للذَّات يتطلَّب أن تكون العلل جميعها موجودة[1]، وفي شرح البيضاويّ أنّ سهولة العدم لا يعني أولويَّة العدم. إنَّ محاولة إلحاق العدم في الممكنات إنَّما هو محاولة لفصله عن العلَّة الأولى وحصرها في العلل الثَّانية أي العلل الَّتي تكون ملازمه للمعلول في الممكنات. وهذا ما لا يصحُّ لأنَّه لا يمكن أن تفصل الممكنات عن علَّتها الأولى، لأنَّ العلَّة الأولى هي العلّة الأساسيَّة.

فالعدم من حيث هو غير موجود هو طرف من أطراف الممكن، فهو إمكانية عدمه متساوية مع إمكانة وجوده، وذلك من خلال توفر العلة ولذلك قالوا أن العدم لا علة له، فالعلة لها علاقة بالممكن الموجود لا في الممكن المعدوم.

ويرى القاضي عبد الجبَّار أنه لا يجوز أن ننسب إعدام الشَّيء إلى الفاعل؛ لأنَّه عندما ننسب إحداث الفعل للفاعل يكون من خلال إضافة الصِّفة أو الحال، والعدم لا حال له من حيث هو عدم، وبما أنَّه لا يجوز أن يوصف شيء ما بالعدم لا يجوز أن ينسب العدم إلى الفاعل. والعدم لا يدرك ولا يتبع الإدراك، ووإنَّما يثبت عدم الشَّيء باستحالة حدوث الأشياء الَّتي تحقّق وجوده[2].

2.2 الوعي والفعل:

يقوم الإنسان بمجموعة من الأفعال المتكرّرة والمستمرّة، ويكون الوجود الإنسانيّ من خلال هذه الأفعال، ولكنَّ هذه الأفعال لا تكون جميعها ضمن دائرة الوعي فقد تكون بحكم العادة المكتسبة من البيئة والَّتي تجعل الإنسان يقوم بأعمال نشأ عليها، من هنا نشأت حاجة الإنسان للوعي لأنَّه متى ما

[1] المصدر نفسه، 148.

[2] المغني، القاضي عبد الجبار،ج8، ص74-75.

وعى الإنسان أفعاله استطاع أن يضعها تحت المساءلة وبالتَّالي إلى تغييرها، ولكن هل الوعي دائمًا يجعل الإنسان يقوم بالتَّغيير الإيجابي لأفعاله؟

إذا ربطنا مثلًا الوعي بالرَّغبة؛ فالرغبات الإنسانيَّة الَّتي تختلف من شخص لآخر، وليست كل الرَّغبات الإنسانيَّة رغبات سليمة أخلاقيًا، أو ليست كل الرَّغبات الإنسانيَّة رغبات ينتج عنها فعلًا أخلاقيًا بالضرورة؛ ففعل الإنسان من الممكن أن يكون مرغوبًا فيه في ذات الواعي، ولكنَّه غير مرغوب فيه أخلاقيًا ومجتمعيًا.

يؤكِّد بلوندل على ضرورة وجود الوعي للفعل الإنسانيّ، فالفعل الإنسانيّ قد يكون قائمًا على معرفة سابقة تجعله يقدم على القيام بفعل ما، وقد يكون دون معرفة سابقة فهذه هي الغريزة أو الفطرة الحيوانيَّة الموجودة عند الإنسان، والَّتي تجعله يقدم على القيام بفعل ما دون معرفة سابقة بماهيَّته ونتائجه، فهو فعل مجرَّد من المعرفة، أمَّا الفعل الَّذي يقدم عليه الإنسان وهو على معرفة به وبنتائجه والذي يختار أن يقدم عليه هو الفعل الواعي .

إذًا فالوعي بالفعل إمَّا أن يكون من خلال العقل، بحيث يدرك الإنسان عقليًا ويكون على معرفة بالفعل الذي هو مقدم عليه، أو أنَّه يعي الرَّغبة الَّتي لديه تجاه القيام بفعل ما، فوعيه وإدراكه لرغبته، يجعلانه يقدم على القيام بفعل ما، وفصل بلوندل في هذه النُّقطة من خلال الحديث عن الدَّافع وعلاقته بالوعي؛ معتبرًا أن كلًا من الإنسان والحيوان يمتلكان دافعًا للقيام بفعل ما، أو يمتلكان انفعالًا ما نتيجة دافع معيّن، ويرى أن الدَّافع لا يقوم وحده عند الإنسان، لأنَّ قيامه وحده عبارة عن رغبة حيوانيَّة أمّا بحضور الوعي إلى جانب الدَّافع، فيكون الدَّافع الواعي هو الدَّافع للفعل الإنسانيّ[1].

[1] Action, Blondel, p115.

فالدَّافع إذًا ضروريٌّ إذا ما اجتمع مع الوعي والرَّغبة الواعية هي منطلق لفعل إنسانيّ، أرى أن الوعي هنا يعد دافعًا للفعل الإنسانيّ فالإنسان إذا ما عرف مثلًا منفعة في فعل ما يجعله الوعي بهذه المنفعة مقدمًا عليها، وإذا ما وعى اللَّذة التي تنتج عن فعل ما أقدم عليها، فالأول: هو وعي عقلاني ينتج عن ترتيبات عقليَّة، والثاني: هو وعي عاطفيّ ينتج عن مزج بين الإدراك والرَّغبة، وهذه هي ميِّزة من ميزات الوجود الإنساني سمتها الوعي.

إذن فحتى الفعل الإنسانيّ الواعي يرتبط بالدَّافع الذي يحفِّز الفعل، وهذا الدَّافع ينقسم عند بلوندل لدافع فطريّ، ودافع فكريّ. والدَّافع الفطري هو الَّذي ينتج عن الظّروف والطّباع وما يكتسبه الفرد نتيجة نشوئه في بيئة معينة فهذا هو الدَّافع له للقيام بفعل ما، أمَّا الدَّافع الفكريّ فهذا هو الدّافع الّذي ينتج عن معرفة ما يكونها الفرد بمجهوده الشّخصيّ وينتج عنها فعل ما، وهذه المعرفة تجعل الإنسان يصنع دافعًا خاصًا به نتيجة المعرفة الّتي اكتسبها، ويسعى لخلق دافع داخليّ يحفزه للقيام بالفعل.

أرى أن الوعي ضرورة إنسانيّة وإنكاره غير ممكن فهو سمة من سمات الوجود الإنسانيّ، فهو الذي يجعل الإنسان يسمو في فعله، فالفعل الإنسانيّ يتميز بمجموعة من العمليّات الدّاخليّة العقليّة والنّفسيّة والّتي تجعله يختلف عن باقي المخلوقات في الكون.

يقدّم شرح البيضاويّ موضوع الإدراك الإنسانيّ ولكن هل الإدراك هو الوعي؟ وكيف يمكن ربط الإدراك عند البيضاوي بالوعي عند بلوندل؟ أما الإدراكات فهي إمّا الإدراكات الحسيّة الّتي تنتج عن الحواس الخمس، أو الإدراكات الباطنة كالتّعقل والتّوهم والتّخيل، وهنا نلحظ المقاربة بين الإدراك والوعي فالوعي أيضًا يكون للأمور الفطريّة الطّبيعيّة وللأمور العقليّة الباطنيّة، وإنّما يحتاج الإنسان إلى كلٍّ منهما حتى يدرك دوافعه للقيام بالفعل الإنسانيّ ما بين ميوله الطَّبيعيَّة والدَّوافع

الفكريَّة. وعنده تنقسم الإدراكات إلى التَّصورات والتَّصديقات، كيف يمكــن أن يــرتبط التَّصــور والتَّصديق في الفعل الإنسانيّ؟

إنَّ التَّصور هو الصُّورة الذِّهنية غير الثَّابتة عن شيء ما، والإنسان دائما ما يكون عنده تصــور ذهني ولو أنه غير واعي أو دقيق نحو الفعل الّذي يقدم عليه، أمَّا التَّصديق سواء في حالــة كــان جازمًا فهو التَّصديق القطعيّ للنتائج البديهيَّة الَّتي سوف تنتج عن فعل ما؛ فالفعــل المبنــي علــى التَّصديق الجازم يكون فعلًا ثابتًا مؤكدًا، يكون الإنسان مدركا له إدراكا تامًّا ومقدما عليه دون خشية من نتائج متفاوتة قد تظهر له، أمَّا التَّصديق غير الجازم فهو ما يبنى على بعض الظَّن لنتائج الفعل فالفعل النَّاتج عنه هو فعل غير قطعيّ إمّا شكي يتساوى به أطراف النَّتيجة المتوقَّعة والَّتي تتكــون من طرفين، أو ظنّي لا يتساوى فيه الطّرفان، فالراجح هو الظَّنّ والمرجوح هــو الــوهم[1]. أي أنّ نتيجة الفعل تكون نتيجة ظنيَّة فيها شيء من التَّصديق بناء على معطيات معينة، وإن لــم تصــدق فيكون الوهم هو النَّتيجة المتوقَّعة الأخرى.

وإذا ما قلنا إنَّ الوعي في الشيء هو معرفة ماهيته فمن الممكن أن يكــون تعريــف العلــم عنــد المتكلمين والفلاسفة مقارب للوعي، فالعلم عند الفلاسفة صورة الشيء في العقل، أي الصّور الحالة من الشيء في العقل[2]، وتشكل هذه الصورة في العقل هو تعقّل ذهنيّ ولكن الوعي يشــتمل علــى التّعقل والشّعور، فمن الممكن القول إنَّ الوعي يشتمل على الصّورة الشّعورية والصّورة العقليّة لأنّ الوعي يكمن في وعي الميول الطَّبيعية والشّعورية المحسوسة، وفي وعي الأشياء العقليّة المدركــة من خلال العقل. فالإدراك للذات يكون إمَّا إدراك ذاتيّ أو معرفة ذاتيّة أو الإحساس بالَّذات[3].

---

[1] نشر الطّوالع، ص255.

[2] المصدر نفسه، ص 255.

[3] الذّات ونظريّة الفعل، عزّت القرني، القاهرة، دار قباء للنّشر والتّوزيع،2001, ص66-67.

أمَّا القاضي عبد الجبَّار فالوعي عنده العلم و العقل عنده العلم، وبرأيه أن الإنسان يجب أن يكـــون عالمًا بما يدركه حتّى يقدم على الفعل الذي كلّف به[1]، وهذا الفعل الّذي يسبقه العلم يترتّب عليـــه أن يكون صاحبه مدركًا لنتائجه وما يتأتّى عنها من ثواب وعقاب. وهذا العلم المتولّد من النَّظـــر هـــو الّذي يجعل الفعل الإنسانيّ ينتج عن اختيار وعزم.[2]

3.2 السببيَّة والفعل:

تحدَّثنا عن الدَّوافع والمؤثرات الخارجيَّة الّتي تجعل الإنسان يقوم بفعل ما، وما تنقسم إليه من دوافع فكريّة وأخرى دوافع مبنية على الرّغبة الدَّاخلية، في هذا الفصل سنتطرق لمسألة السَّببية وعلاقتها بالفعل الإنسانيّ؛ فنحن إذا ما طرحنا علاقة السَّبب بالمسبب والاختلاف الفكريّ حول حتميّة هذه العلاقة أو عدم حتميَّتها، يؤدي هذا إلى اختلاف الإجابة حول سؤال الفعل، علاقة الفعل بالدَّافع ترتبط بعلاقة الفعل بالسّبب، فنشوء الدّافع من المعرفة الضّمنيّة للعلاقة الحتميّة أو الإمكانية لعلاقة السّبب بالمسبب. في هذا المبحث سنتحدث عن العلاقة بين السّبب والمسبّب وعلاقتها بالدّافع والوعي.

إن الاعتقاد بأنَّ علاقة السّبب بالمسبب هي علاقة حتميّة يجعل من الفعل الإنسانيّ فعلًا حتميًا يأتي نتيجة الأسباب التي تسبقه فالفعل الإنساني لا يمكن أن يمتلك إرادة حرّة، وإنّما هو نتيجة حتميّة لما يسبقه من الظّروف. ولكن هل هذه الظّروف والمسبّبات التي تسبق الفعل دائما تجعل من النتيجة حتمية واحدة ولا يمكن أن تختلف، أم أنّ الحالات الّتي تدرس تختلف من ظروف لأخرى، وأنّ الإنسان قادر على التغيير في بعض المواضع.

---

[1] المغني في أبواب التّوحيد، القاضي عبد الجبار، جزء التكليف، ص 380.

[2] فلسفة القدر في فكر المعتزلة، سميح دغيم، ص293.

النَّظر في النّظرية السّببية يرتبط بالفعل الإنسانيّ، من زاوية أنّ هذا النّظام يجعل من الفعل الإنسانيّ بلا جدوى، أي أنّ الإنسان لا يمتلك إرادة حرة ولا يمتلك قدرة على التحكم بأفعاله ففعله هو نتيجة حتميّة لهذا النّظام، كيف عالج بلوندل هذه النّقطة وكيف جعل من الإنسان قادرًا على التَّحكّم ولو بشكل جزئي في مصيره، وكيف أن هذا الإنسان مرتبط باللانهائي وهذه العلاقة هي التي تجعله قادرًا على تحكمه في هذا النّظام الّذي يعتبره البعض بأنّه نظام حتميّ صارم.

إن هذا الكائن الروحانيّ والّذي هو الإنسان وإن كان مدركا لبعض العوائق الطّبيعية، إلَّا أنّه يمتلك الطاقة الروحانية للتحكم بهذه الأسباب فعلى الرَّغم من أنّ بعض الظّروف القاهرة للفعل الإنساني تعدّ حتميّة إلَّا أن بلوندل يعتبر أنّ الإنسان في طاقته الرّوحانية القويّة بإمكانه التّحكم بفعله[1]. بالنسبة لبلوندل إنَّ الحرّيّة الإنسانيّة ليست ضرورة محتملة إنّما هي ضرورة حقيقية[2]، وإذا ما كانت الحريّة هي ضرورة فيتساءل بلوندل إذا ما كانت الحريّة فاعتبارها ضرورة هو اسم آخر للحتميّة[3]؛ فعندما يمتلك الإنسان الحريّة وكونها موجودة فيه ضرورة فهل هذا يعني أنّ الحريّة حتميّة أيضًا؟

أرى أنَّ الفعل الإنسانيّ الحرّ هو خيار إنسانيّ وليس حتميًا فلا يمكن أن يكون حتميًا، لأنّ الفعل الحّر ممكن وليس ضروريًا، فهو برأيي ضرورة ممكنة وليس ضرورة حتميَّة، فالإنسان قد يمتلك كلَّ الدَّوافع والوعي تجاه فعل ما ويمتلك الحريّة للقيام به ولا يقوم به، فهو بالتَّالي ليس محتمًا على القيام بفعل ما إلَّا باختيار محتمل.

ونلحظ أن بلوندل يجعل من الإنسان كائنًا روحيًا يمتلك طاقات هائلة من هذا الجانب لديه، ويركز بلوندل على هذا الجانب الإنسانيّ فتكون نظريته من نظرته الميتافيزيقية للروح. إن عالم الإنسان الدَّاخلي الرّوحي هو عالم خصب ومن الممكن أن ينتج دوافع خاصة به، فمن خلال العوالم الدّاخليّة

---

[1] Action, Blondel , p128.

[2] Action, Blondel , p130.

[3] Action, Blondel, p 131.

والتي تتكون من مزيج من العاطفة والوجدان والضّمير والعقل، تتشكل هذه الطاقات نحو الفعل، والذي قد يكون فعلا فرديا يحقق مصالح شخصية منفردة، وقد يكون فعلا جماعيا يحقق مصلحة عامة.

وأرى أن الطّاقة الروحيّة في الإنسان هي طاقة ضرورية للقيام بالفعل فعدم وجود هذه الطاقة تقلل من كفاءة الفعل الإنسانيّ؛ فالإنسان عندما يمتلك طاقة روحيّة للقيام بفعل ما يقوم به بطاقة قد تكون طاقة فوق عاديّة أو "SUPER NATURAL"، وذلك لأنّها من خياره الحرّ ووعيه ونواياه الخاصّة التي جعلته ينتقل من العدم إلى الوجود.

تحدثنا سابقا عن الفعل الواعي وبلوندل يحاول ربط الفعل الواعي بالسببية من أجل أن يصل لنظريته الخاصة حول الحرية في الفعل الإنساني، فيرى بلوندل أن الوعي بالفعل الحر يفسر من خلال مفهوم اللانهائي، ومفهوم اللانهائي يدل على الفعل الحر[1]؛ مفهوم اللانهائي رياضيا هو وجود عدد لانهائي من الاحتمالات وهذه الاحتمالات هي احتمالات عقلية يستطيع الإنسان تصورها في عالم الإمكان ولكن هذه الاحتمالات لا توجد في الواقع، ونشاط الإنسان العقلي أن يتصور تدرجات متعددة لهذه الاحتمالات اللانهائية. وهنا لا بدَّ من التَّركيز على نقطة أنّ الوعي هو الحرّ هنا وليس الفعل، فالإمكان العقليّ يجعل الوعي حرًا في تصوّر هذه الإمكانات اللانهائية.

نريد هنا أن نتساءل هل الاحتمالات العقليّة الممكنة وغير الممكنة الواعية، تجعل من الفعل الإنساني فعلا حرا، أمّا في الحالة الّتي تكون فيه الحركة الإنسانيّة حركة مبنية على الفطرة أو الرغبة والميول الطَّبيعيَّة لا يمكن أن يكون حرًّا ؟ أظنَّ أن الإمكان العقليّ للاحتمالات من الممكن أن يكون إمكانًا قابلًا للتحقق الواقعي وآخر غير قابل للتحقق الواقعي، والوعي بالممكنات العقليَّة القابلة للتَّحقق من الممكن أن ينتج الوعي فعلًا.

---

[1] Action, Blondel , p123.

4.2 النّيَّة والفعل:

باعتبار أنَّ النِّية هي شأن داخلي للإنسان ويعتبر من عمليات الحياة الدَّاخليَّة، فمن الممكن أن نعتبر أنَّ الإنسان قادر على أن يتحكَّم بها من خلال التَّحكم بخواطره الدَّاخلة وحديث النَّفس الدَّاخلي، وكون النّية هي شيء سابق على الفعل ولها أثرها عليه، ومن الممكن أن نقول: إنّها من المنطلقات الأوليّة للتَّفكير بالإقدام على الفعل. في دراسته للفعل جعل بلوندل النية مرحلة مهمَّة من مراحل الفعل الإنسانيّ، وهي مرحلة أساسيّة يستند إليها الفعل الإنسانيّ الحرّ، لأنّ مرحلة النّية هي مرحلة تشكيل الطّاقات الدّاخلية للفعل الإنسانيّ، وهذه الطّاقات وتشكيلها يكون في الجانب الرّوحاني في الإنسان[1].

وأظنّ أنّ هذه الطّاقة الدّاخلة الغامضة والتي يصعب دراستها بشكل علميّ دقيق هي طاقة ضرورية وعظيمة من أجل تشكيل الفعل وإخراجه إلى دائرة الوجود، فالمرء لا يمكن أن يقوم بفعل إراديّ يحدّد الدّوافع الدّاخلية ويبني الأساس لفعل خلقي دون أن يستند لمرحلة النّية والّتي يمكن، وقد تكون النّية مرحلة تسبق العزم لأنّ مرحلة العزم قد تكون أقرب من التّنفيذ أو أنّ بينها وبين التنفيذ لا يوجد فارق زمني، أمّا النّيّة فقد يكون بينها وبين الفعل فارقا زمنيا فقد تنوي القيام بفعل ما لكن على خطة زمنية طويلة. ولذلك فإن مرحلة النّية مرحلة قد تتبدل تبعا لتبدل الظّروف المحيطة وبناء على تغييرات معينة.

يتساءل بلوندل إن كان هناك تفاوت بين ما ينوي الإنسان فعله وبين ما هو عليه، وإن كان هذا التّفاوت هو تفاوت حتمي لا مفرّ منه، وأرى أنّ ما يقصده بلوندل هنا هو التفاوت الذي لا يسمح للإنسان بالانتقال بين ما هو عليه وبين ما ينوي عليه وذلك؛ لأنّه يقول: إنَّ في هذا مدعاة للتشاؤم،

---

[1] Action, Blondel , p145.

ولكن من الممكن أن يستطيع الإنسان أن يتحكّم في حياته الداخلية ونواياه وينتقل من مرحلة اللافعل والتي هي المرحلة التي لا يريدها إلى المرحلة التي ينوي أن يكونها، وهذه هي مرحلة إنكار نقطة اللافعل التي يكون فيها الإنسان غير فاعل في نقطة ما، وينتقل من خـــلال الحريـــة والإرادة إلـــى مرحلة النية إلى فعل ما ينوي فعله والتغيير، وينتقل بعدها من مرحلة النية إلى مرحلة إخراج الفعل من حيّز العدم والنّيّة إلى حيّز الوجود.

وعمليّة انتقال الفعل إلى الوجود عمليّة تمرّ بعدة مراحل ومن هذه المراحل مرحلة النّية. إذن فـــإن فكرة بلوندل حول التّفاوت هي أن البعض رأى أنّ هذا التّفاوت يجعل الإنسان خارج إطار الفاعـــل الحقيقيّ إنّما هو مفعول، ويرى بلوندل أنّه لا داعي لهذه النّظرية التّشاؤميّة؛ فهو يرى أن الإنسان لا يمكن أن يكون تابعا بشكل دائم أو أبدي، فهناك جزء من الإنسان من الممكن التّحكم به وقهره، فهو قادر على أن يكون أداة اكتساب للفعل، فالإنسان قادر على معالجة هذا الجزء الخاص ولو كان هذا جزئيا وليس نهائيا[1].

إذن عند بلوندل يمتلك الإنسان الإرادة الحرّة ولو بشكل جزئي، وأرى أنّ أهميّة هذه المرحلة تكمن في كونها تنقل الفعل الإنسانيّ من كونه منفعلا متأثّرا بمؤثرات ودوافع خارجة عن إرادته، لـــتحكم جزئي بالمؤثرات الخارجيّة للتحكّم العقليّ في نواياه وهذا ما يجعل أفعاله أو علـــى الأقـــل الجـــزء المدرك والمنوي منها بناءً على إدراك الظّروف أفعالا مرادة و ناتجة عن إرادة الإنســـان الحـــرة. وهذا الجزء المنفعل عن المؤثرات الخارجيّة والذي يجعل فعل الإنسان وكأنّه يخرج من مجهـــول، لأنّه ناتج عن الظّروف والعوائق التي فرضت على الإنسان يجعل البعض يظنّ أنّ مشكلة الفعل هي مشكلة سلبية إذا ما حصرت أفعال الإنسان فيه هذه الدائرة. [2]

---

[1] Action, Blondel , p 146.

[2] Action, Blondel , p 146.

أظن أنّ الظّروف والعوائق التي تتشكل سواء تلك الطبيعيةّ أو السياسيّة أو الاجتماعيّة هي موجودة لا محالة ولا يمكن إنكارها، إلاَّ أنَّ الإنسان استطاع في حالات كثيرة تطويع هذه الظّروف والسَّيطرة عليها سواء لخدمته الشخصيّة أو لخدمة مشروع عام، وهذا هو الجانب الإرادي في الإنسان والذي يجعله يعي الظّروف ويتعقلها وينوي تغييرها. ولكن من الممكن أن يكون الإنسان قادرا على تطويع العوائق والظّروف ولكن هل هو قادر على تطويع النّظام السّببي والذي يعتبره البعض نظاما حتميا صارما؟ يعتبر تطويع النّظام السببي غير ممكن وذلك لأنّ النظام السببي له تراتبية معينة لا يمكن الخروج عنها، أمّا الطَّرح الذي يجعل من الخروج عن التراتبية ممكنا فهو يطرح فكرة الإمكان العقليّ للخروج على التراتبية في النظام السببي وليس الإمكان الوجودي، فالفعل الإنسانيّ لا يمكن أن يغيّر النّظام السّببي إلَّا من خلال الاحتمالات العقليّة والتي طرحناها سابقا عند كل من ليبينس والغزالي.

إذن يمكنني القول: إنّ الفعل وإنْ كان ظاهريا يرتبط بالحاضر والنتائج المستقبلية إلا أنه يرتبط أيضا بعمليات عقلية ونفسية داخلية في العالم الإنساني الداخلي، وهذه الحركة في عالم الإنسان الداخلي هي التي تنقل الفعل من مرحلة الحركة الداخلية لمرحلة القيام بالفعل لمرحلة المفعول.

وبما أن النية ترتبط بالفعل الخارجي على الرغم من كونها حركة داخلية للمرء، قسمها بلوندل إلى ثلاث عمليات الأولى: هي مرحلة النية "to do " والثانية: هي مرحلة تنفيذ الفعل وهي " the doing"، والمرحلة الأخيرة: هي مرحلة انتقال الفعل ليكون مفعولا " what is done".

وقد طرح عبد الجبار مفهوم الداعي والقصد في مسألة التَّكليف؛ فلا بد للمكلَّف أن يكون له دواعي وأغراض يقدم من أجلها على الفعل أو يتركها، ومن الممكن أن نقول: إنّ القصد هو الداعي أي الهدف للقيام أو الإمساك عن فعل ما. وإنّما الإنسان "**متى قويت دواعيه إلى الشيء أراده لا**

محالة، كما أنه إذا صرفه الدّاعي عن الشيء لم يرده وربما كرهــه"[1]، والــداعي غيــر الإرادة، فالدّاعي قد يكون مؤكدا لدرجة يجعل الإنسان مريدا للفعل، وقد يكون مترددا فــلا يريــد الإنســان الفعل[2].

ونود أن ننقل الرسم البياني الذي يفصل مراحل التي يمرّ فيها الفعل والتي تجعله أمرا محققا[3]:

إرادة _ حال_ معنى _ داع _ مراد _ خبر وامر

وهنا وجب التّفصيل بين الإرادة والمراد، بحيث إن الإرادة هي معنى باطني عند الإنســان، أمّــا المراد فهو الدّاعي الذي يدفع الإنسان للقيام بالفعل. وقد جعل القاضي الإرادة لا تكــون مــن دون معنى، فهي "**معنى يسهم في تضمين المراد قدرا معينا وصفة معينة على جهة الحــدوث**"[4]، أي أن المعنى هو الذي يسبب في خلق الفعل وجعله محققا.

5.2 الفعل والوجدان

نودّ أن نتحدث عن النّقطة الأخيرة وهي زاوية لم يتم الاستفاضة فيها فلسفيا لأنّ العقل كان مركزا في مرحلة ما، فالوجدان من الأمور المهمة جدا عند الإنسان، ولها دور مهــم جــدا فــي الوجــود الإنساني، فالوجدان هو من العوالم الدّاخليّة للإنسان وواحدا من أهــم الــدّوافع الإنســانيّة للفعــل الإنسانيّ، وعادة ما يكون هذا الدافع الإنسانيّ له علاقة بالفعل الأخلاقيّ الإنسانيّ.

بالنسبة لبلوندل يؤسس لدافع الوجدان من خلال الفعل الجماعي والذي يــرتبط بالعائلــة والــوطن والإنسانية، وهنا نلحظ أن فعل الإنسان عندما يكون دافعه وجداني لا بد أن يكون هذا الــدافع فــي

---

[1] المغني، القاضي عبد الجبار، جزء الإرادة، ص8.

[2] فلسفة القدر في فكر المعتزلة، سميح دغيم، ص197.

[3] المصدر نفسه، ص199.

1 فلسفة القدر في فكر المعتزلة، ص 201.

ضمن جماعة لذلك قلت: إنَّه يرتبط بالأخلاق، لأنَّ الفعل الجماعيّ يحتاج إلى الأخلاق من أجل تنظيمه.

يعتبر الحب من أهم الأمور التي تحيط بالفعل الجماعي الإنساني، وإذا ما نظرنا إلى الأفعال الإنسانية الأخلاقية في الوطن أو العائلة أو الإنسانية يكون الدافع هو دافع وجداني داخلي أساسه الحب، وهذا الفعل الإنساني الجماعي لا يمكن أن يكون من غير الجماعة. يؤسس بلوندل لنظريته حول الفعل الجماعي من خلال دراسة أصل الحبّ والذي يجعل الإنسان يميل إلى تكوين أسرة[1]، ويعتبر بلوندل أن نشوء الحب ضروريّ في الجماعة، ولا يمكن أن يكون الفعل الجماعيّ من دون الحبّ. وعلاقة الحبّ الفرديّ والحب الجماعيّ تنشأ من التّشكيل الفطريّ للإنسان فالإنسان مفطور على الحب، والأعضاء والدوافع الداخلية تؤكد ذلك، وهذا الحب غالبا ما يكون في إطار جماعي من خلال حب فرد لفرد آخر أو حب جماعة لأخرى[2].

إذن فالحب في الجماعة هو أساس من أساسيات الوجود الإنسانيّ يبنى عليه تأسيس الأسرة، والانتماء الوطنيّ، والانتماء الإنسانيّ للفئات الإنسانيّة المضطهدة والمهمّشة، ولا ننكر أنّ البيئة المحيطة بالإنسان لها علاقة في تعزيز أشكال الحبّ والعلاقات الإنسانيّة الجماعيةّ، فعلى النّطاق الصّغير نجد انتماء البعض للعائلة أكبر من غيرهم نتيجة التّعزيز الذي نشؤوا عليه، ونجد انتماء بعض المواطنين في الدول المتقدّمة أعلى منه في الدول النّامية، ونجد حتى فكرة العلاقات الإنسانيّة والانتماء الإنسانيّ متفاوتة بين البشر.

وفي كل الأحوال يقول بلوندل: إنّ الإنسان لا يمكن أن يريد أن يبقى وحيدا، فهو دائما ما يسعى للاختلاط بالجماعة، حتى إنَّ الجماعات الكبيرة كالدول تسعى لخلق أجواء من السَّلام والتَّعاون فيما

[1] زكريا إبراهيم، فلسفة الفعل، ص 281.

[2] Action, Blondel, p 255.

بينها وتسعى لتعاون اجتماعيّ، ولا ينكر بلوندل صراع القوى المبني على الجيوش الموجودة في هذه الدول، ويعتبرها حاجة ضروريّة للاجتماع البشريّ والجماعات[1].

ويرى أن الوعي الجماعيّ ينشأ قبل التّنظيم السّياسي، وهذا يعني أن الجماعة السّياسية تسعى للتأسيس للانتماء السياسي عقليا وقلبيا[2]، وفي هذا تأكيد على ضرورة الفعل الجماعي الإنساني، وضرورة العاطفة والوجدان في التأسيس لهذا الفعل، فلا يمكن أن تكون القوة الجماعية من غير جماعة تمتلك الانتماء. وإذا ما كان الوجدان ضرورة للفعل السّياسي فهو ضرورة في كافّة الأفعال الإنسانيّة الأخرى؛ فعلاقات الصّداقة والحبّ والعائلة كلّها يشكّل الوجدان الأساس في قيامها.

ومن أهم مكونات الوجدان الإنسانيّ هو الواجب ، فالإنسان نتيجة انتمائه للجماعة أو للعائلة أو لأي علاقة إنسانيّة لا بدّ أن يكون هناك أفعالًا تدل على هذا الانتماء، وهذه الأفعال هي ما تسمَّى بالأفعال الواجبة والتي تفرض على الإنسان ليس من منطلق خارجيّ إنّما من منطلق داخلي

وكنتيجة طبيعية عن التزامه مع الجماعة.

---

[1] Action, Blondel , p255.

[2] Action, Blondel ,p258.

الفصل الثالث:

الفعل والأخلاق

يعتبر الإنسان الفعل الخلقي هو من أسمى أفعاله والتي يحاول من خلالها أن يتجاوز الصفة الحيوانية فيه، وإقدام الإنسان على الفعل الخلقي مسألة روحانية عاطفية أكثر منها عقلية، لأن العقل قد يُغلب المصلحة على السمو الأخلاقي، ولكن لا يجمع جميع المفكرين والفلاسفة على هذه النقطة فالبعض يرى أن الأخلاق مصدرها العقل، والبعض يرى أن الأخلاق مصدرها التشريع الديني، سنحاول في هذا الفصل دراسة فكرة مصدر الأخلاق وأثر ذلك على الفعل الإنساني وكيف أن الإنسان إذا ما اختلفت نظرته عن مصدر الأخلاق اختلفت نظرته حول الفعل.

وينطلق الإنسان للقيام بالفعل الخلقي من وعيه وإدراكه أن هذا الفعل يجب عليه فعله؛ والوجوب هنا يعتقد البعض أنه نتيجة شعوره بأنه سيسأل عن قيامه بالفعل أو عدمه، أو أنه نتيجة إدراك عقلي لضرورة القيام بالفعل، ما هو الواجب وما الذي يجعل الإنسان يقدم على الفعل من أجل الواجب؟ وما علاقة الوعي بالواجب؟ وما علاقته بالنية الدّاخلية للإنسان؟ نحاول أن نحدّد معنى الواجب وعلاقته بالفعل من النّاحية الدّاخليّة الجوانية للإنسان.

يأتي مبحث الحرّية والأخلاق في إطار أهميّة مسألة الحرّيّة وعلاقتها الوثيقة بالأخلاق، فالحريّة كانت وما زالت مطلبا للإنسان على مدى قرون من الاجتماع البشري في أشكاله المتعددة، وعلاقة الحرية بالأخلاق علاقة وثيقة فالأخلاق تكون محددا مهما للحرية المطلقة للفعل.

أما علاقة الأخلاق بالعلم وعلاقتهما بالفعل الإنساني، فقد خصصت لها مبحثا؛ لأنّ بلوندل يحاول أن يشرح هذه العلاقة وهل يمكن أن يكون هناك علما للأخلاق أم لا؟ بالإضافة لعلاقة العقل بالأخلاق وما الفرق بين علاقة العقل بالأخلاق وعلاقة العلم بالأخلاق وما الرَّابط بينهما؟ وكيف أن بعض المتكلمين طرحوا علاقة العقل بالأخلاق والكيفيَّة التي أتى عليها هذا الطرح؟

وبالتالي يكون هذا الفصل هو عبارة عن تأسيس ميتافيزيقي للفعل الخلقي، بحيث يكون الأساس الذي تنطلق منه الأخلاق هو أساس روحاني وجداني، وأن الفعل الأخلاقي لا يمكن أن يبنى على أساس علمي عقلي بمعرفة النتائج التي تؤدي لها الأفعال، بغض النَّظر كانت هذه النتائج للمصلحة العامة والمصلحة الخاصَّة معا، أم أنَّ النتائج تبدي المصلحة العامة على حساب المصلحة الخاصّة.

1.3 الواجب الخلقي

كلمة "الواجب" هي كلمة تحمل فيها شيء من الفرض النفسي الداخلي، والذي ينتج عن مسؤولية، وهذه المسؤولية إمَّا أن تكون مسؤوليَّة فرديَّة، فالفرد يسأل نفسه وينتج فعله بناء على إدراكه أهمية هذا الفعل، أو أن المجتمع يلزم الجماعة بمجموعة من الأفعال التي يتعرض الشخص لمساءلة مجتمعية أو من الجماعة الدينية عليها التي تساءل المرء نتيجة الشرائع الموجودة.

في هذا المبحث ولما للواجب الأخلاقي علاقة بالفعل الخلقي، ابحث في ما طرحه بلوندل وشرح البيضاوي والقاضي عبد الجبار حول هذه الأخلاق وعلاقتها بالواجب والفعل، فقد خصص كل من بلوندل، وشرح البيضاوي، والقاضي عبد الجبار، مادة حول موضوع الواجب الأخلاقي، وإن كان

هذا الطَّرح عند المتكلمين، وشرح البيضاوي في مصطلحات مختلفة عن مصطلحات الفلسفة الحديثة، ولكن هذا لا يعني أن نغض النَّظر عنها، فالمتكلمون قد كتبوا عن الواجب الأخلاقي من خلال مصطلحي الحسن والقبح للأفعال. سأحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة حول الفعل الخلقيّ والواجب فما علاقة الواجب الأخلاقي في الفعل الإنساني؟ وكيف اختلف الفلاسفة والمتكلمون حول مسألة الواجب أصلها ومنبعها وعلاقتها في العقل والعاطفة؟ وما علاقة الواجب بالقانون الأخلاقي؟ وهل القانون الأخلاقي منبعه الذَّات أم التَّشريعات الدّينية والقانونيّة؟

ذكرت في الفصل الأوَّل أنَّ الفعل الخلقي جزء مهم من الفعل الإنساني، وما تزال الأخلاق واحدة من المباحث الأساسية في الفلسفة والاختلاف حولها متسع، وقد اتسع الخلاف حول الأخلاق ومصدر الأخلاق إن كان من الذَّات الإنسانيّة من الفكر والشّعور فهل مصدرها النَّفس الإنسانيَّة؟ أم أنَّ مصدرها التَّشريعات السَّماوية؟ أم أنَّها ناتجة عن الروحانية الموجودة في الإنسان؟

إنَّ فلسفة بلوندل والتي اعتبرت فلسفة دينيَّة، ربطت الأخلاق في جانبها الميتافيزيقي، فكان الجانب الروحاني والدِّيني في الإنسان هو الدَّافع للفعل الإنساني الخلقي، وبتشكل الوعي بالواجب عند بلوندل يكون هذا الجانب هو الذي يجعل الإنسان يقدم على الفعل، ولكن الوعي بالأخلاق لا يكون عقليا فقط إنَّما يكون من خلال الجانب الميتافيزيقي للإنسان أيضا[1].

الوعي بالواجب هو نتيجة ضرورية استدلالية " a posteriori" تنتج من الحركة البديهية "a priori " للإرادة؛ ويقصد بلوندل أنَّ التَّجربة هي الطَّريقة التي نكتشف من خلالها الواجب الأخلاقيّ، فيذكر أنَّ المثال الأخلاقيّ حقيقة تندمج مع العمليَّة التجريبية إلى جانب التَّطلعات الداخليَّة[2]. وهنا يقصد بلوندل أن الواجب الأخلاقي نصل إليه من خلال تطلعات داخلية للفعل الخلقي، والحركة الطبيعية

---

[1] Action, Blondel , p 279.

[2] Action, Blondel , p264.

التي تلحق هذه التطلعات هي الإرادة والتي يرى بلوندل أنَّها إرادة طبيعيَّة من الإنسان تصل هـذه الإرادة من خلال التجربة إلى المثال الأخلاقي السامي، الذي نتعرف عليه من خلال التجربة.

يرى بلوندل أن الواجب الأول للإنسان المعرفة بالواجب وهذه المعرفة ليست معرفة حتميَّة تكـون فقط من خلال القانون الذي يفرض من الخارج أو من الحريَّة الداخلية للإنسان، بل أيضا تفـرض نفسها من خلال التَّضحية الفعالة والمجهود، فالواجب فعل إيجابي يتجاوز مطابقة كل من النية مـع الواجب. إرادة ما يريده المرء تكون من خلال الخضوع لقاعدة عملية[1].

إذًا فإن بلوندل يرى أنَّ الواجب هو فعل وليس مسألة داخلية أو حتى التزام مجرد في القانون، إنَّما هو فعل يقدم عليه المرء وإقدامه عليه يكون بإرادته، و يلزم حصول الفعل المراد والـذي يعتبـره الإنسان واجبا أن يلتزم بقاعدة عملية. وهذا جزء من نظريته التي ترى بأن الفعل الإنسـاني يفهـم ويدرس من خلال العمل، فدراسته يجب أن ترتكِّز على البعدي لا القبلي وإن كان لا يمكن الاستغناء عن النظر في ما هو قبلي إلا أنَّ ما هو بعدي هو الأساس بالنسبة للفعل الإنساني عنده.

يرى بلوندل أن هناك علاقة بين الواجب الأخلاقي والوعي، فإدراك الواجب الأخلاقي والقـانون الأخلاقي يكون من خلال الوعي، ووعي الإنسان بالحرية والواجب الأخلاقي يكـون مـن خـلال الفعل؛ فالفعل بمثابة المحرك للواجب الأخلاقي، ولا يكون الواجب حتميا من خلال الاستنتاج السببي ولا عن طريق الطريقة الاستنتاجية، هذه التي تدخل الفعل إلى القانون الرسمي[2]. إذا فالإنسان بوعيه بالفعل يعي الواجب، فالواجب ليس مسألة عقلية سببية يقدم المرء عليه لأنه يعرف النتيجة المسـبقة للفعل، والتي تجعل من الواجب أشبه بالقانون الرسمي الذي يلتزم به المرء نتيجة معرفته بنتائجه.

ويرى بلوندل أن من الضروري في الواجب أن نفعل بما يتوافق مع الطبيعة البدائية للإرادة وهـذه الضرورة هي التي تساعدنا على إدراك كمال الحرية. والنقطة هنا أن يتقدم الإنسان بما يريد طبيعيا

---

[1] Action, Blondel , p136.

[2] Action, Blondel, 140p.

بناءً على التوافق بين الهمة والنتيجة التي تكون للمجهود الذي يبذله، والتَّساوي بين اتساع التطلعات التطوعية وضخامة النهاية المرادة، ما هي إذا المسافة بين ما يريد الإنسان أن يكون وبين ما هــو عليه الآن؟ [1]

في مقابل الواجب تأتي المصلحة التي من الممكن أن تتعارض مع الواجب الأخلاقي؛ فالمصــلحة الشخصية من الممكن أن تتعارض مع المصلحة العامة لذلك كثيرا ما نرى الإنسان ينطلق في فعله في غرض مصلحته الشخصية مستثنيا مصلحة الجماعة، وقد جعل "بيجوفيتش" الواجب هو الفعــل الخلقي، بينما المصلحة هي الفعل السياسي، ولكن الفعل السياسي لمصــلحة العامــة أم لمصــلحة السياسيين؟

أسس بلوندل لنظريته حول الأخلاق وارتبطت عنده بالحرية والإرادة، وهذا مــا سأفصــله فــي المبحث التالي، بالنسبة لبلوندل فإنَّ الأخلاق أيضا لها بعدٌ ميتافيزيقيٌّ لا يمكن أن يتغافل عنه المرء، يعتبر الواجب وفقط الواجب يعتبر دينيا؛ لأنَّ الله يريدنا أن نفعل في ضمن إرادته.

عنونت دراسة الأخلاق عند المتكلمين بمصطلحي الحسن والقبح، وقد ذكر البيضاوي الاختلافات الكلاميّة في موضوع التّحسين والتّقبيح عند المتكلّمين فقد ذكر أن اختلافهما يرتكز على نظــريتهم في الفعل الإنساني، فلمَّا كانت أفعال العباد مكتسبة عند الأشاعرة فالقبح والحسن لا يكون فيها الفعل إنّما في اكتساب الإنسان له، أمّا بالنسبة للمعتزلة فالقبيح قبيح عند الله تعالى وعند الإنسان، واختلفوا في العقل إن كان حاكما على حسن الأفعال أوقبحها[2].

وفي نشر الطوالع أذكر ما ورد عن "عبد الرحمن الإيجي" في كتاب المواقف حول الأفعال التي يحكم العقل في حسنها وقبحه:

1. عندما يكون الفعل صفة كمال مثل العلم، والقبح صفة نقصان مثل الجهل.

---

[1] Action, Blondel ,, p141.

[2] نشر الطوالع، ص 443.

2. المصلحة والمفسدة، ما يلائم الغرض فيه مصلحة وما يخالفه فيه مفسدة .[1]

وأرى إن الإيجي هنا لم يدخل العقل في الفعل الخلقي مثل فعل الشجاعة أو البطولة أو الصدق مثلا، فقد حصر العقل في المسائل التي تعنى بالمصلحة والمفسدة أو زيادة ونقصان في صفة ما، ولكن العقل يمكن أن يدرك أيضا الأفعال الخلقية الشرعية، فبعض الأفعال الشرعية تدرك عقلا ويحسنها العقل ولكن قد لا يؤدي دائما تحسين العقل أو تقبيحه لهذه الأفعال إلى الإقدام على القيام بها لذا ماذا يمكن أن يكون الدافع للفعل الخلقي غير التحسين والتقبيح العقلي؟

وأرى أن الشرع وإن كان مصدرا مهما للأخلاق لا يمكن تغافله إلا أنه ليس المصدر الحصري لها، ولكن هل هذا يعني أن العقل يعتبر واحدا من مصادر الأخلاق؟ إن العقل وإن كان يمكنه إدراك أهمية الفعل الأخلاقي للمصلحة العامة، ولكنه قد يدرك أيضا مصلحته الخاصة فيقدم عليها فالعقل لا يمكن أن يكون مصدرا وحيدا للفعل الخلقي.

يكمن الفرق بين التنشئة والتدريب أنَّ التنشئة على الفعل الأخلاقي هي تنشئة داخلية تجعل المرء يقدم على الفعل الأخلاقي بإرادة ذاتية، أمَّا التدريب فهو الفعل الذي يكون في الجماعة وفي الظَّرف المحدد المبنى في تلك اللحظة ولذلك ينتهي بانتهاء الظَّرف المكاني والزماني[2]، فعند حصول المرء على التنشئة الأخلاقية التي تنتج فعلا أخلاقيا ذاتيا إراديا يستطيع أن يقدم ويقرر أفعاله الخلقية بناءً على هذه التنشئة لأنه لم يتدرب على الفعل بمعزل عن التنشئة للرغبة الداخليَّة للفعل الأخلاقي، لذلك فنرى الكثير من الأفراد الذين يتدربون على فعل ما لا يقدمون عليه إلا لأنَّهم محدودون في مكان معين يدفعهم تواجدهم في ظروفه إلى الإقدام على الفعل.

---

[1] نشر الطوالع، ص443- 444.

[2] الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط1، 2010، ص181-182.

2.3 الحرية وحرية الإرادة والخلق

تعتبر الحريَّة مطلبا إنسانيا أساسيا اقترنت بالوجود الإنساني، وتعتبر الحرية الميزة التي خلقها الله في الإنسان وترفعه عن الحيوانية فالفعل الإنساني المقرون بالاختيار المعطى للإنسان وهو الحرية، من أهم ميزات الوجود الإنساني.

ماذا يعني أن يكون الفعل الإنساني حرا ؟ الفعل الإنساني يكون حرا عندما يكون من اختيار الإنسان، و ينتج الفعل الإنساني الحرّ نتيجة عدم خضوعه للفروض الاجتماعية والسياسية، واقدامه على الفعل الأخلاقي أو البطولي بمحض إرادته، ولذلك فقد ظهرت مشكلة حريَّة الإرادة في الفلسفة والعلم وحتى إنَّ لها جذورًا في علم الكلام، فقد ظهرت بعض المذاهب التي تؤمن بالحتمية الاجتماعية والنفسية والكونية والتي تجعل من الفعل الإنساني ليس حرا إنَّما خاضعا، إضافة لبعض المذاهب الكلامية التي تجعل من الإنسان خاضعا للإرادة الإلهية وأنه إمّا منفذا لها أو مقيدا بها أو حرا لا منفذا ولا مقيدا.

يذكر بلوندل الحرية في عنوان ويربطها في الحتمية ويحاول أن يربط بينهما، وفي البداية قد يوحي ذلك إلى تناقض عنده؛ لأنّ الحتميّة تتناقض مع الحريَّة في الفلسفة، فكيف يريد بلوندل أن يثبت أنَّ الحريَّة هي حتمية؟ هذا التناقض والذي يسمِّيه بلوندل التناقض السّقراطي الحديث والذي يرى فيه بلوندل: أنّ الحتميّة النفسيّة والميول الطَّبيعية للإنسان هي حتمية ولكن الحرية هي العامل الوحيد القادر على التغلب على هذه الحتميات، أو أن إدراك فعالية السبب لقراراتنا تجعلنا نتحكم بالاقتراحات الموجودة للتلقائية النفسية[1].

وأنا هنا أمام تأسيس ميتافيزقي للحرية والأخلاق، فالحرية لا يمكن أن تقاس من خلال العقل؛ لأنَّ العقل يؤدي إلى الحتمية وملاحظة الأسباب تجعل من العالم محكومة بأحكام مسبقة، أمَّا مفهوم

[1] Action, Blondel, p134.

الحرية فهو مفهوم ميتافيزقي ينقل الفعل الإنساني إلى منطقة ترفعه عن الأسباب الطبيعية المدركة عن طريق الاستدلال العقلي، فمعنى أن يكون الإنسان حرا أن يحاول من خلال التَّجربة تجاوز هذه الأسباب والانطلاق من جانبه الروحي إلى منطقة الفعل الإنساني الذي يتجاوز الأسباب، ومن هذا نرى القصص البطولية الأخلاقية تنشأ من الحرية فالحرية تعطي الإنسان المساحة للصحوة الإنسانية التي تظهر فجأة عند الإنسان، فينتج عنها فعلا بطوليا إنسانيا يخترق الأسباب الطبيعية[1].

حرية الإرادة عند بلوندل تكون من خلال إرادة الإرادة، فالإنسان عندما يريد أن يريد فعله يمتلك عندها حرية الإرادة، ويتجاوز من خلال هذه الإرادة الطبيعة الفعالة والميول الطبيعية للإنسان، والتي تحتم عليه أفعال بخضوعه لها[2]. فالإنسان عند بلوندل قادر أن يتجاوز الحتمية الكونية ويكبحها من خلال حرية الإرادة.

الحرية من حيث هي واحدة من المحفزات للفعل الإنساني، لا تكون إلا من خلال معرفة نفسها، ومعرفة الحرية لنفسها يجعلها تلغي ضرورتها الفعالة؛ فالحرية من حيث هي محفز للفعل من حقها أن تكون فوق كل المحفزات، وهي في الواقع من بين المحفزات للفعل الإنساني؛ فافتراض بلوندل الحرية كمفعول أو نتيجة ، يعني أن الحرية أصبحت هدفا بحد ذاتها وليست ضرورة، وإنما الأصل في الحرية ألا تكون هدفا يحاول الإنسان الوصول إليه.

يرى بلوندل أن بافتراض الحرية كنهاية للإنسان نشعر أن هناك تفاوت بين "the willing will" و "the willed will"، تفاوت بين الإرادة المريدة التي هي الدافع للفعل الإنساني وبين الشيء المراد أو الإرادة المرادة، ويرى بلوندل ضرورة السعي لتقليل هذا التفاوت وعمل موازنة بين الإرادة المرادة والإرادة المريدة، بمعنى تقليل التفاوت بين ما يريده الإنسان نظريا وبين ما يريده الإنسان

[1] بيجوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، 181.

[2] Action, Blondel, p 134.

عمليا،what we know and what we are, what we do and what we will.[1] ويحـــاول بلوندل أن يصل من خلال هذا أن الإرادة الإنسانية تبقى على الدوام تريد ما لا تملكـــه. ويختصـــر امرؤ القيس هذه الفكرة في بيت شعر وهو:

وَما المَرءُ ما دامَت حُشاشَةُ نَفسِهِ
بِمُدرِكِ أَطرافِ الخُطوبِ وَلا آلي

بمعنى أن الإنسان ما دامت عليه الحياة يسعى دائما لشيء ما أي شيء، ولا يرضى بحاله التي هو عليها، فهو دائم البحث عن شيء جديد يريده، فما أن يصل إلى غاية ما حتى يبـــدأ بتحديـــد غايـــة أخرى يسعى لتحقيقها إلى أن يفنى.

الحريَّة تبدو خاملة فارغة في حالة كانت غاية للإرادة[2]، بمعنى أن يريد الإنسان الحريَّة بحدّ ذاتها، وهذا لا يجوز عند بلوندل، فالحرية هي الأساس الإنساني ولا يجب أن تكون شيئا يريده الإنســـان، معتبرها هدفا يصل إليه فهي من تكوين الإنسان الرّوحاني. فالحريّة يجب أن تكون الأساس الـــذي ينطلق منه الإنسان لتحقيق غاياته التي يسعى إليها، ولا يجوز أن تكون الحريّة هدفا يسعى الإنسان للوصول إليه. ولكن كيف الحال في المجتمعات التي تكون الحرية فعـــلا شـــيئا يســـعى الإنســـان للحصول إليه؟ بمعنى أن الإنسان لا تكون أفعاله حرّة، هل هذا ما يعنيه بلوندل في أنَّ الحريّة يجب أن تكون أساسيّة في حياة الإنسان ولا تكون خيارًا يسعى الإنسان إلى تحقيقه. ويذكر بيجوفيتش: أنّ التّنشئة على الحريّة تؤسس لخلق دافع جواني في الجانب الروحي للإنسان تدفعـــه للقيـــام بالفعـــل الأخلاقي، ولكن التَّدريب يخلق حركة ميكانيكة تجعل الإنسان أشبه بالحيوان يقوم بالفعل الخلقيّ لأنّه اعتاد عليه لا أكثر.

---

1 olivia blanchete,Maurice blondel philosophical life,William eerdmans publishing company,Cambridge, u.k, 2010,p59.

2 Action, Blondel, p134.

ألاحظ أن بلوندل يجمع أيضا في نظرته لحرية الإرادة بين التجريبية والروحانية، فحرية الإرادة لا تكون من غير أن يمارس الإنسان أفعاله بحرية، والحرية هي مسألة روحية داخلية بحيث تكون منطلق الفعل الإنساني.

والحركة عند المتكلمين لا بد لها من قوة موجبة أي مبدأ يوجب الحركة؛ وهذه القوة إما خارجية مسببة من سبب خارجي وتسمى حركة " قسرية" ، أو تكون لتلك القوة شعور بما يصدر عنها وسميت هذه الحركة حركة "إرادية"، أمَّا إذا كانت لسبب غير قسري وينتفي عنها الشّعور فتكون حركة "طبيعية"، والحركة يكون منها السَّريع والبطيء، وذلك لما يخترقها من عوارض كالهواء للحركة الطَّبيعية أو أي مخروق يخترق الحركة القسرية والإرادية[1].

فالفعل الإنسانيّ في أساسه حركة وهذه الحركة عندما يكون مبدؤها الإرادة الإنسانية تكون حركة حرة؛ لأنَّ الإنسان في هذه المرحلة يكون مخيرا بالإقدام نحو الفعل وعدمه، وهنا نقول: إنَّ الخوارق التي تسرع أو تبطأ الحركة الإرادية من الممكن أن يحاول الإنسان تجاوزها، أما الخوارق التي تخترق الحركة الطَّبيعية فقد يكون من الصَّعب محاولة تجاوزها.

وفكرة الفعل الخلقي تأتي عند الحديث عن الإرادة والقدرة فيعرف الخلق على أنَّه: ملكة يصدر بها عن النفس أفعالًا بسهولة من غير سبق الفكر[2]؛ ومعنى هذا أنَّ الأخلاق هي مسألة فطريّة حسب ما يذكر شرح البيضاوي هنا، ولا تتعلق إلا في احتمال واحد ولا يجوز فيها اجتماع الضدين أي أنَّ الخيار في الفعل الخلقيّ هو خيار واحد، ويضرب مثالا على ذلك الحلم يصلح للعفو ولا يصلح للانتقام، على خلاف القدرة على الفعل وإرادة الفعل قد تنسب إلى الضّدين[3]. ولكن إذا قلنا: إنَّ الأخلاق هي مسألة فطريّة فنحن هنا أمام إشكال فكرة الحرية فهي تنتفي هنا عن الخيار الأخلاقي

[1] نشر الطّوالع، ص 286.

[2] نشر الطّوالع ، ص 271.

[33] نشر الطوالع، ص271.

والأصل أن يكون الخيار الأخلاقي خيارا إنسانيا يصدر عن النفس بعد تفكر، ولكن هو يقصد هنـــا أنَّ بعد التنشئة يصدر الفعل الخلقي عن الإنسان دون تفكر؟

3.3 فعل الجماعة الأخلاقي

النّاظر في الفعل الإنساني يراه مقرونا بفعل الجماعة فالإنسان يفعل معظم فعله في ضمن الجماعة، ولذلك كان لابدَّ على مرّ العصور أن يكون هناك ما ينظم هذا الفعل، وقد اجتهـــد الإنســـان فـــأنتج القانون الذي يحكم الجماعات البشرية، ولكل جماعة بشرية مهما كانت صغيرة كالأسرة والعائلات والجماعات الكبيرة التي تنتمي لمنطقة جغرافية معينة وطنية، أو الجماعة الدينية، قانونا ينظمها.

ترتكز فكرة فعل الجماعة عند بلوندل بفكرتي العمل التَّطوعي والحب، فالأساس الذي تقوم عليـــه العائلة هو الحب بين شخصين من بيئتين مختلفتين وتنشأ بينهما علاقة، والأساس الذي يقوم عليـــه الفعل الديني هو الانتماء والإيمان والذي هو جزء من العاطفة لطائفة دينية ما، والفعل السياسي هو فعل ينتج عن الانتماء للعائلة الكبيرة وهي الوطن والتي تؤسس لانتماء مواطنيها حتى تحافظ على تماسكها.

الفعل العائلي: إن فكرة العائلة أو الأسرة هي الأساس التي يقوم عليها المجتمع الكبير فالعائلة تعتبر الأساس لقيام المجتمع الكبير، اعتبر بلوندل أن الأساس التي تقوم عليه الأسرة ليس أثر فكرة الزواج إنما الرغبة والنزوع للأبوة والبنوة[1]، معتبرا أن الرغبة في التزواج والاتصال الجسدي وإن كانـــت جزءا من الفعل العائلي إلا أنها أسمى من حصرها في هذا الجانب، فالفعل العائلي لا يعـــرف مـــن خلال التناسل الحيواني أو الاتصال الجنسي فهناك الوظيفة الأخلاقيّة والمجتمعيّة للفعـــل العـــائليّ،

[1] Action, Blondel, p248.

فالفعل العائليّ يعمل على " تقوية الشّعور الأخلاقيّ وترقية للنمو الاجتماعي وازكاءً للحسّ الـــدّيني" [1].

والدّور الأخلاقي للفعل العائليّ يكمن في المسؤولية الإنسانيّة في تكوين أسرة يكون لها أثرها على المجتمع، فمن الانتماء العائلي الصّغير الذي يولد عند الطفل في الصّـــغر، يتســـع إلـــى الانتمـــاء المجتمعي الأكبر، فيذكر بلوندل أن وعي الطفل يكون محصورا في كون عائلته هي العائلة الوحيدة في هذا العالم، وأنَّ عائلته هي مركز الكون، وينتقل من النظرة المحصورة في عائلته إلى النظـــرة الأوسع للمجتمع الكبير[2].

فالإنسان بجانبه الروحيّ ينطلق بفعله العائلي ويسمو به، ويعتبر بلوندل أن الفعل العائلي لا يمكـــن أن يكون دون الجانب الروحي في الإنسان، فالفعل العائلي ليس فعلا ينطلق من الغريزة فقط والتي تنشأ بين شخصين متحابين، إنَّما هو الفعل الذي يسمو ويرقى من خلال جانبـــه الروحـــي ليكـــون مؤسسة أخلاقية ترتقي بفعلها الخلقي والديني وتلتزم في المسؤولية الجماعة من الاعتناء بالإنســـان الطفل الذي يأتي إلى هذا الكون إلى تنشئته للانتماء للمجتمع الكبير.

4.3 الفعل الاجتماعي و السّياسي

ينتقل الطّفل من الانتماء العائلي المحصور في عائلته إلى إدراك المجتمع الذي يتكون من عـــائلات مختلفة في المجتمع الذي يعيش به، ليتكون بعدها عنده الشعور بفكرة الـــوطن الـــذي يجمـــع كـــل العائلات ولكن هل الوطن هو عبارة عن امتداد لفكرة العائلة؟

[1] فلسفة الفعل، زكريا ابراهيم،281.

[2] Action, Blondel, 248.

يتدرَّج الطفل في إدراكه من إنتمائه المحصور بالأسرة ومسؤوليته المتعلقة بـأفراد عائلتـه، إلـى إدراكه الإنتماء الأوسع للمجتمع، ومن هنا نؤسس لأفراد مجتمع منتمي من خلال إدراك المراهـق للدائرة الأوسع للانتماء المجتمعي.

إن الفعل الاجتماعي من وجهة نظر بلوندل ويؤيده بها "زكريا إبراهيم"، له علاقة بالميتافيزيقيـا وجانبه الميتافيزيقي يجب أن يعرض للدرس من أجل دراسة طبيعة أي مجتمع، ولا يمكن أن يـتم اعتبار أن الوطن هو امتداد لرابطة الدم والعرق والقبيلة، ولذلك فهو يحـاول أن يؤسـس للفعـل الاجتماعي السياسي بعيدا عن هذه الفكرة من خلال الجانب الروحـاني. فرابطـة الـدم والعائلـة المشتركة لا يمكن أن تكون هي الرابطة التي تجمع الأمة الواحدة لكن هناك جسما روحيـا يجمـع الأمة الواحدة بروح واحدة وإرادة واحدة، "ومعنى هذا أن الأسرة وإن كانت عنصرا اجتماعيا فـإن الأمة مع ذلك ليست مجرد امتداد للمجتمع العائلي"[1].

وتتميز الشعوب بطابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها، فتتميز من خلال فكرة أو عاطفـة مـا يجمع الشعب عليها فيكون الاجتماع الإنساني، ولها طابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها[2]، وهذا الانتماء هو الذي يجعل الأمة روحا واحدة وتجعل من ينتمي لها يدافع عنها بكل كيانه دون تردد، وهذه الفكرة أو العاطفة إما أن تكون ضعيفة بحيث تتفكك الأمة بسرعة أو تكون قوية وراسخة بحيث تستمر على فترات طويلة من الزمن.

وفعل المجتمع الذي ينطلق من مصالح مشتركة، يختلف عن فعل الجماعة النـاتج عـن انتمـاء للجماعة من ناحية عاطفية وجدانية؛ لأنَّ الأولى تحكمها المصالح، والثَّانية يحكمها الانتمـاء الـذي ينطلق من الحرّية، فالمجتمع قائم على المطالب المادية، والجماعة قائمة على مطالب روحية، تجتمع على فكرة واحدة تدفع بهم إلى الفعل الأخلاقي.

---

[1] فلسفة الفعل، زكريا إبراهيم، ص 298.

[2] المصدر نفسه، ص 302.

ولا بدَّ لكل أمة من تاريخ وأفكار تربطها، وتأتي تنشئة الأجيال الجديدة على فكرة تفوق تجعل من كل أمة تعتبر نفسها الأفضل بامتلاكها ما يميزها، ويعتبر بلوندل أن هذه النزعة لا بدّ منها؛ لأنّه لا يمكن أن تؤسس للانتماء للأمة إلّا من خلال هذه النَّزعة التفوقية التي تجعل من أفراد كل أمة يؤمنون بفرادتها عن غيرها من الأمم.

إذا فالأساس الذي يقوم عليه فعل الأمة هو أساس روحاني، فأين تكمن الناحية السياسية في فعل الجماعة ؟ يرى بلوندل أنَّه من خلال النمو الطبيعي للحياة الاجتماعية، تجتمع الإرادات الفردية وتصبح هناك إرادة جماعية تنطلق نحو الفعل الجماعي للأمة؛ فإرادة الفرد الذي نشأ على فكرة الوطن والانتماء تجتمع مع إرادات الأفراد الآخرين الذين تدفعهم العاطفة والإيمان بفكرة الجماعة الإقدام على الفعل الجماعي، ويعتبر بلوندل أنَّ كل فرد هو عضو فاعل في المجتمع الكبير وله دوره المهم الفاعل الذي لا يمكن الاستغناء عنه، كمثل أعضاء الجسم التي يلعب كل منها دورا مهمًّا في الجسم، وبالتوازن الذي يحصل بين القوى في المجتمع بين الفرد والجماعة، وحتى إنَّ الجمعيات الموجودة في المجتمع يكون لها دورها الفاعل كجماعة[1].

المؤسسة السياسية الأساسي فيها أنها قريبة إلى التطور التاريخي والتقاليد المحددة؛ وهذه تكون مثالية بالنسبة للمجتمع الحالي. وكما أن الاجتماع الإنساني مراد وضروري، السلطة مرادة وضرورية وتعلو كل الإرادات الإنسانية الأخرى[2].

وتعتبر القوة عنصرا مهما جدا في التكوين المجتمعي فهي تعلو على الإرادات الاجتماعية وتعلو على السلطة وتعلو على الأمة، وتعلو أيضا على القوة السياسية[3]، فالقوة هي التي تعطي السلطة

---

[1] Action, Blondel, 254.

[2] Maurice blondel ,action , p 256.

[3] Blobdel , action p 257.

ومن غير القوة لا تقوم السلطة، ولذلك فإن المحاورات التي تتم بين المجتمعات التي تتجاور تتم على أساس الأقوى فلا يمكن أن تكون هناك سيادة لجماعة بشرية من دون القوة.

تحقق الإرادة الاجتماعية في كل فرد يعني وجود أشكال سياسية متعددة وقد يكون قصد بلوندل هنا الأحزاب السياسية التي تتشكل نتيجة الاختلافات، وهذه الأشكال السياسية نتيجة وجود الإرادة الاجتماعية تكون منظمة ومبررة، والاختلافات تخلق بيئة وظروفاً للتنوع الحتمي [1]. ومع اتساع المجتمعات وتوسع المطالبة بالحريات، أصبحت مسألة التنوع السياسي مسألة ضرورية، ولا يمكن أن تخلو منها إلا المجتمعات الدكتاتورية التي تسعى لفرض هيمنتها على جميع مواطنيها بالقوة.

ولكن متى يظهر الوعي المشترك بين أفراد المجتمع الواحد؟ يعتقد بلوندل أنَّه يظهر عند رأس الجسم السياسي ثم ينتقل إلى باقي الأعضاء، بالتالي فإن الوعي السياسي يكون عند الشخص الأعلى الذي يمتلك السلطة ولكن هل فعلا أن الوعي السياسي يبدأ عند رأس السلطة، أم أنه يقصد أن الاختلاف الذي يميز كل جسم سياسي يحدده رأس هذا الجسم ومن ثم إلى من يؤيد وينتمي لذات الفكرة؟

أمّا عند المتكلمين ففعل الجماعة عندهم يكون الحديث عنه من خلال الفعل الشرعي والذي هو الفعل المستمد من النصوص الدينية، وموكل إلى الإمام الذي يتولى أمر الحكم والقيادة على هذه التشريعات الدينية، والإمامة عند المتكلمين هي ضرورة تستدعيها الجماعة الإنسانية، وتعرَّف الإمامة على (أنَّها خلافة الرسول –عليه السلام– في إقامة قوانين الشَّرع وحفظ حوزة الملَّة، أي: ناحيتها، على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة)[2]. فالشَّرع هو الأساس التي يتم من خلاله ينظم

---

[1] Blondel,action,p 258.

[2] نشر الطوالع ، ص 567.

سير الحياة اليومية للمسلمين، وقد تواتر إجماع المسلمين على عدم جواز بقاء الأمة من غير إمام حتى لا تشيع الفاحشة والعصيان بينهم[1].

5.3 علم الأخلاق

يعرف بلوندل علم الأخلاق على أنه الفعل الذي يتطور من جيل إلى جيل بناءً على القوانين، والأساس في علم الأخلاق أن يرى الإنسان نفسه كجزء من الكل وليس هو الكل؛ فعلم الأخلاق يدرس شروط المجتمع الكبير التي تمتزج فيه حياته[2]. إذن فإنَّ بلوندل يعتبر أنَّ المجتمع هو المحدد للأخلاق ودراسة تطور المجتمعات هي التي تجعلها تصل لما يسمى علم الأخلاق، فتطور هذه الأخلاق هو الذي يجعلها قابلة للدرس. ويمكن أن يشرح الإنسان علم الأخلاق دون عزله عن الحقيقة بافتراض النموذج المثالي، ومن خلال هذا المثال يحاكم الإنسان نفسه بناءً على شروط المجتمع الإيجابية .

يحاول بلوندل أن يتساءل إن كان هناك علما للأخلاق، وكيف يمكن أن يحدد ملامح هذا العلم، فالأخلاق العلمية مستقلة عن اللجوء للحرية وعن النظرة المحددة للواجب، وتتأسس هذه الأخلاق على الأفعال الحتمية وعلى الانفعالات جميعها [3]؛ وهنا يمكن القول: إنَّ بلوندل يرى أيضا أنَّ الأخلاق من الممكن أن تكون فطريَّة أي أنَّها انفعال طبيعي عن شيء خارجي يستدعي الانفعال. علم الأخلاق يدرس فيه تأثير الأخلاق على الأخلاق، وكيف أنَّ الفعل الأخلاقيّ الفرديّ يؤثِّر على الفعل المجتمعي والفعل المجتمعي يؤثر على الفعل الفرديّ، وهنا يؤكّد بلوندل أنّ الأخلاق تخلق

[1] المصدر نفسه، ص568.

[2] Action, Blondel, p267.

[3] Action, Blondel, p265.

أخلاقا من خلال هذا التأثير والتأثر، وينفي كون الفعل الخلقي الفردي يستطيع أن ينظم فعل الأفراد[1].

يرى بلوندل ضرورة عزل علم الأخلاق عن العقوبات المستنبطة من قانون العقوبات وعن الأسباب التبريرية وعن التخيّلات الفرديّة؛ لأنَّ المنطق لا يصلح في الحديث عن علم الأخلاق، فالضَّمير لا يمكن أن يكون حاكمًا على هذا الجدل؛ لأنَّ هذا ينهي ما يسمى علم الأخلاق [2]، وهنا نعود لمسألة أنَّ علم الأخلاق تراكميّ، نعم وله علاقة بالتأثير والتأثّر، ولكنَّه ليس قانونًا للالتزام به، إنَّما هو علم يجمع بين التاريخ الأخلاقي والتجربة الأخلاقيّة الفرديّة والجماعة، وهنا نؤسس لعلم أخلاق ينتقل في الأمة الواحدة وبين الأمم المختلفة.

وهل يمكن الحديث عن علم للأخلاق عند المتكلمين؟ ورد عند المتكلمين فكرتين حول الخلق، الأولى: كون الأخلاق تصدر من الإنسان بشكل فطريّ دون سبق فكر، أو أنَّ العقل ينظر في أمر الفعل إن كان أخلاقيا أم لا، أو أنّ المصدر الشّرعي هو الذي يحدد أخلاقية الفعل، وفي الثلاث حالات لا نستطيع القول: إنَّ معرفتنا بالأخلاق هي معرفة تراكمية؛ لأنَّ المعرفة بالأخلاق مرتبطة بماهو آني أو بالنص المحدد غير القابل للتغيير.

6.3 الأخلاق والميتافيزيقيا

على الرّغم من كل الدراسات العقلية والعلميّة، إلّا أنّه ما زال هناك زاوية غامضة في الإنسان وهي ميوله لما وراء الطبيعية، والإنسان كائن روحي لا يمكنه أن يستغني عن المـــادي فيجتمـــع فيـــه الطَّرفان كمكونين أساسيين[3]. وهذا ما جعل الفعل الإنساني مرتبطا بهذا الجزء الغامض من الإنسان

---

[1] Action, Blondel , p 266.

[2] 266.

[3] زكريا إبراهيم، فلسفة الفعل، 256.

الذي حين تعرضه للدرس على أساس علمي لا تستطيع، وكل الدراسة حولـــه تكـــون افتراضـــية، ولكنها كما قال بلوندل ضرورة افتراضية.

7.3 بلوندل والميتافيزيقيا

نريد أن نحاول الإحاطة والتَّفريق بين ال "supernatural" و "metaphysics"، الجزء الخارق للطبيعي في نظرية بلوندل يعتبر ذلك الجانب الروحي في الإنسان غير القابل للدرس العلمي لـــذلك من الممكن ترجمة " superstitious" الإيمان بما هو خارق للطبيعية غير قابل للدرس العلمـــي أو الفلسفي، وهذا ما يطرحه بلوندل في اعتبار هذا الجانب الوهمي الخيالي كضرورة افتراضية، أمَّـــا الجانب الميتافيزيقي في الإنسان فهو ما يدرس جوهر الأشياء الموجودة في الطبيعة، لـــذلك فصّـــل بلوندل وفصل بين الاثنين، وفي هذا المبحث سأكتب عن المصطلحين وعلاقتهما بنظريـــة بلونـــدل حول الفعل الإنساني.

على الرغم من أن بلوندل لا يتجاهل الجانب العملي للفعل الإنساني إلَّا أنَّه في نفس الوقت يركـــز على الجانب الميتافيزيقي، فهو يرى أن الفعل الإنساني يجب أن يخلق صورة جديدة من الفكر متحدا مع الفعل تسمى الأخلاق الميتافيزيقية، معتبرا أنَّ الجمع بين الروح الإنسانية مـــع العـــالم الحـــالي الطبيعي، يفترض عالما آخر وهو العالم المثالي[1]. وهذا العالم المثالي الموجود في الجزء المتعـــالي من الإنسان، والفعل الإنساني هو الرابط الذي يجمع بين النظام المادي المبني على التغير والحركة والصيرورة و بين النظام الأنطولوجي المتعالي ويمثل وجودا عاليا على الطبيعة[2]، وهذا ما يســـميه بلوندل بالديناميكية الميتافيزيقية؛ بمعنى أنَّ الحركة الموجودة في عالم الفكرة تـــؤثر علـــى الفعـــل

---

[1] Action, Blondel , p 272.

[2] زكريا إبراهيم، فلسفة الفعل، 321.

الإنساني، بحيث تكون الفكرة هي المنطلق الذي ينطلق منه الفعل الإنساني، مرتبطة بالإرادة الإنسانية التي تنطلق أيضًا من الفكرة.

والإنسان في نزوعه المستمر نحو المثال الأعلى أو الفكرة المتعالية المكتملة يحاول أن يحقق كمال فعله الإنساني؛ فالفعل الإنساني الذي ينطلق من الفكرة العليا أو المثال الأعلى تجعل من الفعل الإنساني أقرب إلى الكمال مع المحاولة الدائمة للاقتراب منه، وهذه هي مهمة الميتافيزيقي الذي يتجاوز المظاهر الزائلة السطحيَّة إلى جوهر الأشياء[1]، فحقيقة الأشياء الواقعية الماديَّة لا تكون ذات معنى إلا بوجود حقيقة ميتافيزيقية، وهذه الحقيقة التي ترنو للمثال الأعلى هي التي تجعل من المثال الأعلى في العالم الميتافيزيقي بالحركة والصيرورة فعلا حقيقيا محققا على أرض الواقع[2].

إنَّه يرى أن الجانب التجريبي في الفعل الإنساني ليس كافيا إنّما لا بدَّ أن يكون للجانب الروحاني في الإنسان دوره الخاص الذي يمنح الإنسان الطاقة التي تخرج من أجل الفعل والتي تكون "supernatural" ، فيؤسس بلوندل لنظريته في الفعل من خلال دراسة الجزء الخارق للطبيعة في الإنسان، والذي نعلم أنه ليس ملموسا تجريبيا من الممكن دراسته إنما هو الجانب الذي ما زال غامضا عن الدرس العلمي . وهنا يعتبر بلوندل مدافعا عن فلسفته التي يمكن تسميتها " the philosophy of supernatural"[3].

يتحدث بلوندل عن الاكتفاء بالذَّات وعلاقتها بالأخلاق، هل يمكن اكتفاء الإنسان بنفسه بعيدا عن القانون والجماعة في ما يتعلق بالأخلاق؟ وهل من الممكن أن يصل الإنسان لمرحلة يكتفي بها في ذاته؟

---

[1] المصدر نفسه، 321.

[3] M. Blondel, "Action (1893): Essay on a critique of life and a science of practice" (Book Review) Hudson, D W International Journal for the Philosophy of Religion; Jan 1, 1988; 23, 2; ProQuest Central pg. 108.

بلوندل يرى أنَّ كلًّا من " التَّضحية" و" المعاناة" أساس لقيام الفعل الإنسانيّ، وإذا ما نظرنا إلى الحياة بتداولها اليوميّ نرى أنّها قائمة فعلا على هذين العنصرين، ولكنَّ المشكلة في طريقة فهمنا لمفهوم التّضحية، فالتّضحية الّتي من تكون بالوقت أو الغريزة أو النّفس في مواضع معينة، لكن الإنسان ينطلق إلى التّضحية من خلال تحفيز وتعزيز النّفس من تحفيز داخلي أو خارجي في مقابل مادّي، والأصل برأيي أنّ التّضحية إذا أردنا أن نسميها تضحية يجب أن تكون من دون مقابل مادّي.

الأساس بالتّضحية أن تكون قائمة على فكرة اللامقابل، أمّا إذا كان الفعل الإنساني محفزا في مكافأة أو تعزيز مادّي فهذا لا ينتمي لمفهوم التّضحية. ولا تكون فكرة التّضحية من دون مقابل إلّا من خلال الجانب الميتافيزيقي فحياة الإنسان الرّوحية هي التي تدفعه للقيام بالتّضحيات الأخلاقيّة.

وجاءت فكرة التَّضحية عند بلوندل كحل لمشكلة الواحد والجماعة؛ فموت حب الذَّات هو الذي يؤدي لحل هذا الإشكال؛ فالإنسان بعدها يقدِّم إرادة الله على إرادته، وهذه الإرادة هي الّتي تحتم على الإنسان حب شريكه في الإنسانية، وبالتالي فعله يكون من خلال النظر إلى ثلاث زوايا: حب الذات، والله، والآخر، والتضحية من أجل الآخر[1] .

يقول بلوندل: إنَّ النِّظام الإيجابي والنظام والأخلاقي والنظام الميتافيزيقي هم عمليات مباشرة تنظم كل واحدة منهم الأخرى؛ وهذا يعني أنَّه لا يمكن أن تكون الأخلاق منفصلة عن الميتافيزيقيا والروحانية والّدينية، فالإنسان يستمد أخلاقه من تجربته العمليّة والأخلاقيّة والروحيّة، واقدامه على الفعل والذي يعتبر فعلا إيجابيا تكون من خلال هذه الثلاثية.

وللروح شغف يجعلها تقدم أو تمسك على الفعل وهذا الشغف يكون نتيجة المشاعر التي تعتري الروح، من خوف وغضب وحب ومتعة وحزن، كل هذه المشاعر التي نختبرها من خلال الحركة

[1] Joun j macknail, blondel in the subjectivity of moral decision making, wood stock college, new York, p 8.

والتجربة، وهذه التجربة والحركة نطلق عليها لاحقا الفعل ولكن هل هناك فرق بين الفعل التطوعي والفعل الناتج عن الشّغف؟ الفعل التّطوعي هو الفعل الذي يصبح تطوعيا نتيجة الشّـــغف والسّـــبب والوجود، وينتج عن حركة داخليّة للروح [1].

وكما نعلم أنَّ الدّين الإسلامي لم يعلم الإنسان من علم الروح إلا قليلا، وعلى الرغم من ذلك كانت هناك مادة في علم الكلام تحاول أن تحيط في مسألة النفس وعلاقتها في البدن، وسنحاول أن ندرس هذا الجانب وعلاقته في الفعل الإنساني. وإنما أورد هذه المادة عن علم الكلام لعلاقتها بالجانـــب الروحي للإنسان، وأثر القوة الموجودة في الروح الإنسانية على الفعل الإنساني. فالإنسان بمـــزيج الروح والبدن يخرج فعله.

8.3 النفس والروح :

هل وردت النفس بنفس معنى الروح في الدّراسات الكلاميّة كما في دراسات الفلسفة الإسلاميّة؟

يتساءل البيضاوي إن كانت النفس الإنسانية مجردة أم لا؟ ومعنى ذلك أنَّها مجـــردة عـــن البـــدن منفصلة عنه أم أنها جزء لا يتجزأ منه؟ يورد عن النِّظام أنَّه يقول في الرُّوح: "**جسم لطيف سار في البدن سريان ماء الورد في الورد باقية من أول العمر إلى آخره لا تنحل، ولا تفســـد مـــا دامـــت سارية في البدن، فالبدن حيّ، فإذا فارقت البدن فالبدن ميت**"[2] وهنا جعلها مادية تسري في البـــدن وجعلها جسم في حين أورد في شرح البيضاوي عن الفلاسفة أنّها ليست بقـــوة جســـمانية وليســـت بمادة.

[1]Anthony Kenny, action emotion and will ,edited by r.f Holland, newyork, humanties press,p2.

[2] نشر الطَّوالع ، ص330.

يرى البعض أن النَّفس والتي يرى بعض المتكلمين أنَّها الرّوح تكون "**قوة في الدّماغ مبدأ للحسّ والحركة**"، والبعض قال: هي " **قوة في القلب مبدأ للحياة في البدن**" وبعضهم جعل للنفس ثلاث قوى:

1. **في الدِّماغ وهي "النّفس النّاطقة الحكميّة" لكونها مبدأ للعلوم والحكم.**
2. **في القلب وهي " النّفس الغضبيّة" الّتي هي مبدأ الغضب والخوف والفرح والحزن وغيرهما، وتسمى بـ" القوة الحيوانيّة" .**
3. **في الكبد، وهي "النّفس النّباتية" الّتي هي مبدأ التّغذي والنّمو والتّوليد وتسمّى أيضا بـ" الشهوانيّة" لأنّها مبدأ الجذب الملائم[1].**

وجعل النفس في الدماغ يجعل من الفعل الإنساني مرتبطا في قوة الفكرة عند الإنسان، أمّا جعلها في القلب فيجعل من العاطفة والإيمان مبدأ الفعل الإنسانيّ؛ لأنّه يجعل الارتكاز على واحد منها ويتجاهل الآخر، وإن كان التّصور الثالث هو الأكثر اقناعا من حيث ينظر للإنسان من خلال ثلاث قوى ينطلق منها الفعل الإنساني وتحركه، ولكن هذا كلّه افتراضي لا اثبات عليه.

ولقد أورد القاضي عبد الجبار الخلاف بين مفكري المعتزلة حول مسألة النفس والروح والجسد، يرى عبد الجبار أن الإنسان نعرفه بأنَّه الرّوح والجسد معا، فالإنسان لا يكون إنسانا بالروح فقط ولا يكون إنسانا بالجسد فقط، فهو يعرف اضطرارا من خلالهما، ولا يمكن أن تكون الروح هي الفاعل القادر المدرك من دون الجسد؛ لأنَّ الفعل لا يحصل من دون وجود الجسد، والإنسان يكون إنسانا من خلال ما فيه من قدرة واحدة وإرادة واحدة ولا يمكن أن تجزأ هذه إلى أجزاء، بحيث إنَّ " الحي القادر المدرك، وأنه وإن كان اجزاء كثيرة فهو في حكم الشيء الواحد من حيث كان حيا

[1] نشر الطوالع، ص 330.

واحدا وقادرا واحدا، فذلك يبطل قوله: إنَّ الجسد موات"[1]، ولكن الحياة تكون في كل جزء من أجزاء الجسم، فكل مكان ندرك فيه الحرارة والبرودة يكون فيه حياة.

ويؤكد عبد الجبار أنَّ الحياة لا تكون إلَّا من خلال الآلات والآلات يعني بها الأعضاء، فالإنسان لا يمكنه الإقدام على الفعل إلاّ من خلال الأعضاء التي فيه، وبأطراف هذا الجسد يقدم على الفعل.

وقد ورد أن الإنسان يكون إنساناً من خلال القلب، وهذا ما ينتقده القاضي عبد الجبار، فلا يمكن أن يعرف الشّيء من خلال شيء آخر داخله، إلّا في حالة كان عرضاً حالاً فيه أو جوهراً مجاوراً، وقد أثبت القاضي عبد الجبار أن القلب لا يمكن أن يبتدئ الفعل بالتالي لا يمكن أن تكـــون الـــروح جزءا من القلب أو روحاً في القلب[2] .

وإذا كان الإنسان فما فيه من روح وجسد هو الفاعل القادر المقدم على الفعل، لكن كما رأينا عند بلوندل فإنّ الجانب الروحي عند الإنسان ليس جانب الحياة فقط، إنّما ذلك الجانب الغامض غير القابل للدرس، فالإنسان بمكوناته الرّوحية منها والجسدية يكون لنا هذه الصورة العظيمة للمخلوق المنتج المبدع في كافّة الصّور الإنسانيّة.

وأنهي في ما ورد عن "علي عزت بيجوفتش" في كون الحضارة الإنسانيّة ارتقت من خلال ذلك الجانب الإنساني الغامض، فالأدب والفن كانت دائمة هذه الصّور الخلاقة الَّتي لا تتوقف حركتها وصيرورتها على مدى التَّاريخ البشريّ، وكانت دائما خير دليل على الإبداع البشريّ، النّاتج من جانبه الروحي.

---

[1] المغني، القاضي عبد الجبار، ج11، ص334.

[2] المغني، القاضي عبد الجبار، جزء التكليف، ص 329- 331.

الخاتمة:

الإنسان في تكوينه الرُّوحي لا يكون فعله اعتباطياً ولا عبثياً عدمياً، إنَّما فعلا أخلاقياً يصحبه معنا يستقي معناه من خلال تفاعله مع الأرضيّ والسمائيّ، وتكوين الفعل الإنسانيّ يتأثّر بالتَّكوين العاطفيّ للإنسان، ساعيا إلى تأسيس الأسرة من خلال الحبّ.

من خلال الجدل العقلي وطرح الأسئلة وإجابتها، دارت فلسفة كل من بلوندل والقاضي البيضاوي في شرحه والقاضي عبد الجبار حول الفعل، فالفعل أساس الوجود الإنسان، ودراسة الحركة الإنسانية من خلال فهم الطبيعة البشرية الخاصة، وفهم تفاعلها مع الموجودات الأرضية، أسست نظرية الفعل و اختلف فيها تبعاً لاختلاف الثقافة والفترة الزمنية لكل مفكر.

هذه المعرفة العقليّة والشعوريّة والتي يتمثلها الوعي الإنسانيّ، مدركا كل ما يدور حولها محاولا أن يخرج صورة إنسانيّة أخلاقية لا تغفل عن الجانب الروحي في الإنساني ولا عن الجانب الإنساني، فالإنسان من خلال وعيه وإدراكه وإرادته وشعوره، تكون حركته حركة إنسانية أخلاقية لا تتناقض مع الجانب الروحاني ولا مع الفعل الدّيني، ويظهر أثر هذه الحركة على تأسيس الفعل العائلي والانتماء الوطني من خلال الحب، لينتقل إلى الفعل السياسي وعلاقات الجماعات الإنسانيّة مع بعضها البعض.

وقد كان للإرادة الإلهية والإنسانيّة والتّداخل الذي يحدث بينهما في مرحلة ما قبل خروج الفعل للواقع الأهميّة عند المتكلمين وموريس بلوندل، بحيث إنَّ هذه الديناميكيّة في الإرادة الإنسانيّة هي التي تقلل المسافة بين إرادة الإنسان المريدة وإرادته المرادة؛ بحيث يصل الفعل الإنسانيّ إلى مرحلة يكون فعله فوق مستوى الوقائع ويتناسب مع إرادته المريدة.

هذه المعرفة العقلية والشعورية والتي يتمثلها الوعي الإنساني مدركاً كل ما يدور حوله محاولاً أن يخرج صورة إنسانية أخلاقية لا تغفل عن الجانب الروحي في الإنسان، ولا عن الجانب الإنساني ،

فالإنسان من خلال وعيه وإدراكه وإرادته وشعوره، تكون حركته حركة إنسانيّة أخلاقيّة لا تتناقض مع الجانب الروحاني ولا مع الفعل الديني، ويظهر أثر هذه الحركة على تأسيس الفعل العائلي والانتماء الوطني من خلال الحب، لينتقل إلى الفعل السياسي وعلاقات الجماعات الإنسانية مع بعضها البعض.

وقد كان للإرادة الإلهية والإنسانية والتداخل الذي يحدث بينهما في مرحلة ما قبل خروج الفعل للواقع الأهمية عند المتكلمين وموريس بلوندل، بحيث أن هذه الديناميكية في الإرادة الإنسانية هي التي تقلل المسافة بين إرادة الإنسان المريدة وإرادته المرادة؛ بحيث يصل الفعل الإنساني إلى مرحلة يكون فعله فوق مستوى الوقائع ويتناسب مع إرادته المريدة.

إذن الفعل الإنساني هو نتاج عمليات متعددة بدايتها تكون حركة الإرادة الداخلية، وتتأثر هذه الحركة بالإرادة الخارجية والإرادة السياسية والإرادة الاجتماعية، و النظام السببي، ولكن الأساس الذي ينظم الفعل الإنساني هو الديناميكية الداخلية والتي أطلق عليها بلوندل الديناميكية الميتافيزيقية، إضافة إلى العمليات العقلية من وعي ونية وإرادة.

وكل هذه العمليات هي التي تؤدي إلى خلق الفعل الخلقي والذي هو أسمى أنواع الفعل الإنساني، فالفعل الأخلاقي الإنساني والذي لا يمكن أن ينتج من غير الديناميكية الميتافيزيقية، وهذه الديناميكية تكون من خلال صورة المثال الأعلى الأخلاقي، وهذا المثال هو الأساس الذي ينطلق الإنسان منه لإنتاج الفعل الأخلاقي .

في حين أخذ بلوندل على نفسِه أن ينظر للجانب الروحي للإنسان من خلال العقل، فحاول أن يعقلن ذلك ولكن من خلال النظر عقليا في مركزية عمل الروح وأثرها على الفعل الإنساني ، كانت النظرة شرعية في نشر الطوالع في محاولة النظر العقلي فيما لا يتعارض مع النص الشرعي إلا أن

المركزية كانت للنص الشرعي، في حين حاول القاضي عبد الجبار من خلال مركزية العقل عنـــده أن يخرج لنا بفلسفة عن الفعل الإنساني والإرادة الإنسانية.

وقد توصلت الباحثة في هذه الدراسة إلى هذه النتائج والتوصيات:

النتائج:

1. اشتغل الفلاسفة منذ العهد اليوناني في دراسة الفعل من ناحية نظرية وعملية، ولكن المركزية لم تكن للفعل، وغالباً كانت للعقل.
2. أثبت الفلاسفة والمتكلمون أن الفعل الإنساني يتطلب وجود مقتضيات تسبقه، ولكن اختلفوا في هذه المقتضيات الأولوية لمن فيها، وكيف تجتمع لإنتاج الفعل الإنساني.
3. الفعل الإنساني لا يمكن أن يكون عدمياً، فلولا أن له غاية وارتباط بالعالم الروحي للإنسان ، لما استطاع الإنسان أن ينتج فعلاً إنسانياً يرتقي بالإنسان ويسمو بفعله.
4. تباينت آراء علماء الكلام في الفعل وكان هذا من الاختلاف في إثبات الإرادة والقدرة الإنسانية للإنسان والله.
5. أثبت موريس بلوندل أن الإنسان بتكوينه الروحي والعاطفي، يقلل المسافة بين إرادته المريدة وإرادته المرادة ، بحيث أصبح فعله أقرب إلى تطلعاته.
6. الوعي هو الذي يخلق فعلاً إنسانياً حراً.
7. الإنتاج الفكري الكلامي أو اللاهوتي المسيحي هو إنتاج فكري فلسفي ، وفي الدراسة ينظر المتكلمون و بلوندل كثيولوجي وفيلسوف في الفعل الإنساني من منطلق رأيه الإنساني غير منفصل أو متناقض مع إيمانه.

التوصيات:

1. في هذا البحث دعوة للبحث في كتب التراث وربطها بالفلسفات الحديثة والإنتاج الفلسفي المعاصر، حيث أن بعض الأسئلة متجددة تخلق من جديد بين جيل وجيل.
2. ربط الفكر النظريّ الفلسفيّ بالفعل ضرورة، لأن كل ما هو نظري يجب أن يكون سبباً لتحسين صورة الوجود الإنساني من خلال الفعل .
3. إغفال الجانب العاطفيّ للإنسان وعدم النظر فيه فلسفياً لا يجوز؛ ذلك لما يصنع الجانب العاطفيّ الوجدانيّ من أثر على الفعل الإنسانيّ.
4. عند دراسة الفعل الإنساني لا يجوز عزله عن تكوينه الروحي، ولا عن تجاربه الفردية، فمن الممكن أن يكون لهذا التكوين وهذه التجربة الأثر الأكبر في تطور و تقدم الفعل الإنساني.

المصادر والمراجع:

1. ابن سينا، **التعليقات**، تحقيق حسن محمد العبيدي، دار الفرقد، سوريا، دمشق، 2009.
2. أرسطو، **الأخلاق إلى نيقوماخيس**، ترجمة احمد لطفي السيد ، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ج1، 1924.
3. أرسطاطوليس، **النفس** ، المركز القومي للترجمة، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، تحقيق وتصدير مصطفى النشار، ط2، 2015.
4. الأسدآبادي ، القاضي عبد الجبار، **المغني في أبواب التوحيد**، مجلد التوليد، التكليف، الإرادة، تحقيق توفيق الطويل، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر.
5. الأفريقي , ابن منظور، **لسان العرب**، ج14، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، السعودية، دار صادر , بيروت ،1993.
6. الإيجي، عبد الرحمن، **المواقف في علم الكلام**، عالم الكتب، بيروت، 1999.
7. البدور، سلمان، **العقل والفعل في الفلسفة الإسلامية**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006.
8. بدوي، عبد الرحمن، **الزمان الوجودي**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973.
9. بدوي، عبد الرحمن، **مذاهب الإسلاميين**، دار الملايين، بيروت، 1997.
10. بيجوفيتش، علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، تقديم عبد الوهاب المسيري، ترجمة محمد يوسف عدس، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2013.
11. العلامة الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
12. دغيم، سميح، **فلسفة القدر في فكر المعتزلة**، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007.
13. ريكور، **فلسفة الإرادة الإنسان الخطاء** ، ترجمة عدنتان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2008.

14. سيرل، جون، **العقل**، ت ميشيل حنا متياس، عالم المعرفة، الكويت، 2007.

15. شيخ أرض، ، الوجود والصيرورة والفعل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1994.

16. الصدر، محمد باقر ، **فلسفتنا**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط12، 1982.

17. عبد الرحمن، طه، **سؤال العمل**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط2012.

18. الفارابي، **المدينة الفاضلة**، ت علي عبد الواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والتوزيع، القاهرة، د.ت.

19. القرني، عزت ، **الذات ونظرية الفعل**، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، 2001.

20. الكندي ، أبو يوسف يعقوب بن اسحق ، **الرسائل الفلسفية**، ت محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة ،ج1، 1978.

21. كانط، عمانوئيل، **نقد العقل العملي**، ترجمة غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2008.

22. المرعشي، أبو بكر، **نشر الطوالع**، تحقيق محمد يوسف عدس، دار النور المبين، عمان، الأردن ، 2013.

23. النشار، علي سامي، **نشأة الفكر الفلسفة في الإسلام** ، دار المعارف، القاهرة، ط9، ج1، د.ت.

24. النشار، مصطفى، **رواد التجديد في الفلسفة المعاصرة**، نيو بوك للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017.

22. Olivia blanchete,Maurice blondel philosophical life,William eerdmans publishing company,Cambridge, u.k, 2010.

25. Maurice Blondel, Action(1893), Essay on a critique of life and science of practice, translated by Olivia blanchtte,university of notre dame, notre dame, Indiana, 2007.